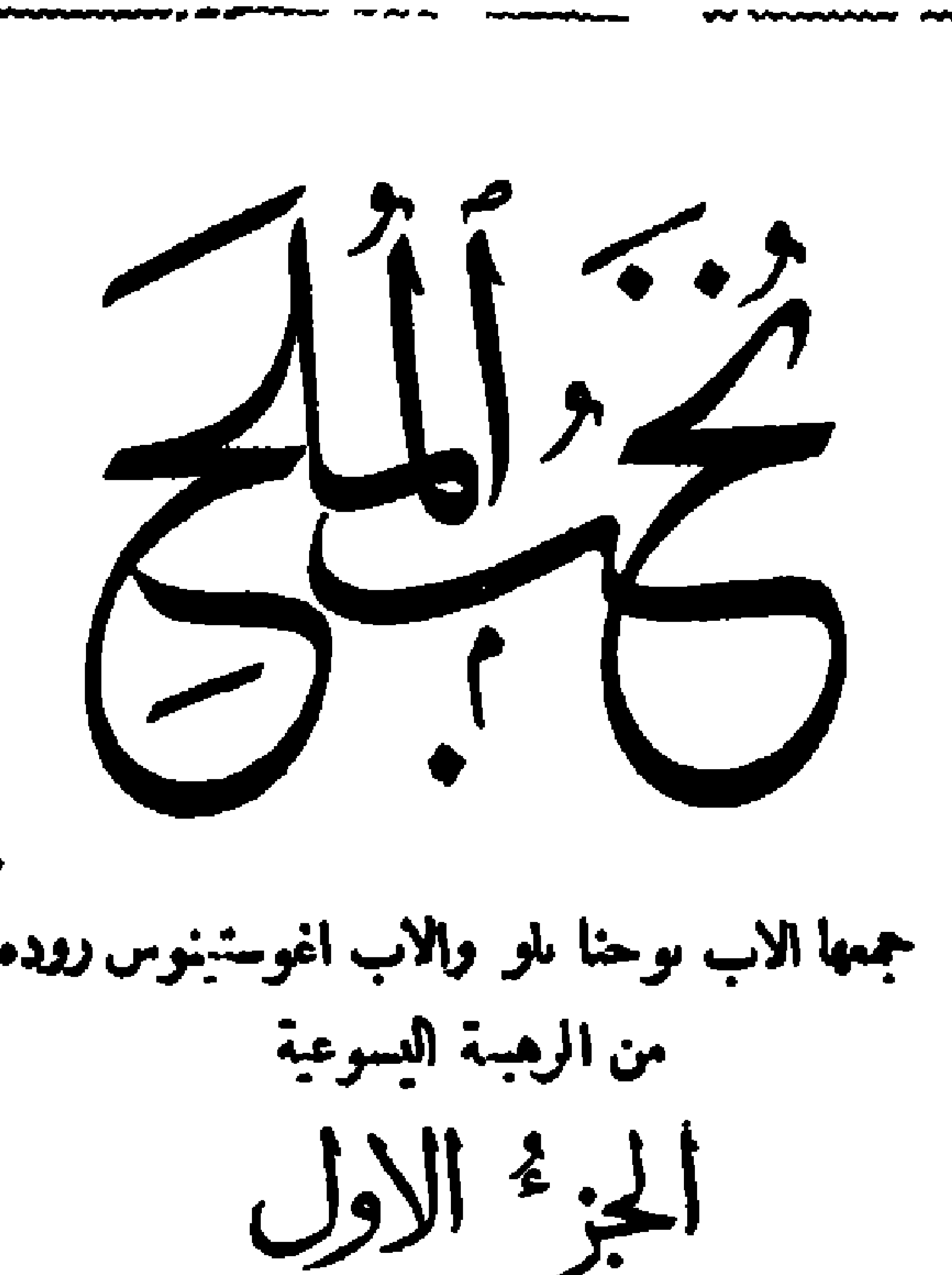


جمعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس روده
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثاني

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى حِكَايَاتٍ ادبيَّةٍ
وَنَوَادِرَ حِكَمِيَّةٍ وَحَوَادِثَ تاريخيَّةٍ



المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
في بيروت سنة ١٨٩٢
برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة ٣٩

نُخْبَةٌ

مِنْ مُقَدِّمَةِ بَهْنُودَ بْنِ سَحْوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ

ذكر فيها السبب الذي من اجله
عمل بيدبا الفيلسوف الهندي راس البراهمة
لدبشليم ملك الهند كتابهُ الذي سماه
كليله ودمنه

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ: كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ. فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَازَعَهُ وَيُوَاقِعُ مَنْ وَاقَعَهُ وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَهُمُ الطَّبَقَةُ الْأُولَى حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَ مَنْ نَاوَأَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ. فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا خَرَائِقَ. فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ. وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ يُقَالُ لَهُ فُورٌ. فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِمُحَاذَبَتِهِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ عَلَيْهِمْ وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ الْفِيَلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ وَالسِّبَاعِ الْمُضَرَّاةِ بِالْوُثُوبِ مَعَ الْخُيُولِ الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ

فلما قرب ذو القرنين من فور الهندي وبلغه ما قد أعد له من الخيل التي كأنها قطع الليل مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم. تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلا ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة فرأى إعمال الحيلة والتمهل واحتفر خندقا على عسكره وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع به. فاستدعى بالمنجمين وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه. فاشتغلوا بذلك وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف. فتنجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه أن يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري إذا دفعت مرت سراعا. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب. ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران. فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولت هاربة. وأوعز إلى الصناع بالتشمير والانكماش والفراغ منها. فجدوا في ذلك وعجلوا وقرب أيضا وقت اختيار المنجمين. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بما يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب

مُصِرٌّ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مُقِيمٌ عَلَى مُحَارَبَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأُهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورُ الْفِيَلَةَ أَمَامَهُ وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَاثِيلَ الْفُرْسَانِ فَأَقْبَلَتِ الْفِيَلَةُ نَحْوَهَا وَلَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا. فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ. وَتَقَطَّعَ فُورُ وَجَمْعُهُ وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَنْدَرِ وَأَثْخَنُوا فِيهِمِ الْجِرَاحَ

وَصَاحَ الْإِسْكَنْدَرُ: يَا مَلِكَ الْهِنْدِ ابْرُزْ إِلَيْنَا وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ وَلَا تَحْمِلْهُمْ إِلَى الْفَنَاءِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُرُوَّةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتْلِفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْحِفَةِ. بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ. فَابْرُزْ إِلَيَّ وَدَعِ الْجُنْدَ فَأَيُّنَا قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ الْأَسْعَدُ: فَلَمَّا سَمِعَ فُورُ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً. فَبَرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَنْدَرُ فَتَجَاوَلَا عَلَى ظَهْرَيْ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ. فَلَمَّا أَعْيَا الْإِسْكَنْدَرَ أَمْرُهُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ وَالْعَسَاكِرُ. فَالْتَفَتَ فُورُ عِنْدَمَا سَمِعَ الزَّعْقَةَ وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسَاكِرِهِ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَالَتْهُ عَنْ سَرْجِهِ فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَتِ الْهُنُودُ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ حَمَلُوا عَلَى الْإِسْكَنْدَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحَبُّوا مَعَهُ الْمَوْتَ. فَوَعَدَهُمْ مِنْ

نَفْسِهِ ٱلْإِحْسَانَ وَمَنَحَهُ ٱللهُ أَكْتَافَهُمْ . فَٱسْتَوْلَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَقَامَ بِٱلْهِنْدِ حَتَّى ٱسْتَوْثَقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَٱتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ . ثُمَّ ٱنْصَرَفَ عَنِ ٱلْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ

فَلَمَّا بَعُدَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ عَنِ ٱلْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ تَغَيَّرَتِ ٱلْهُنُودُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي خَلَّفَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: لَيْسَ يَصْلُحُ لِلسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى ٱلْخَاصَّةُ وَلَا ٱلْعَامَّةُ أَنْ يُمَلِّكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بُيُوتِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهُمْ . وَٱجْتَمَعُوا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ وَخَلَعُوا ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي كَانَ خَلَّفَهُ عَلَيْهِمِ ٱلْإِسْكَنْدَرُ . فَلَمَّا ٱسْتَوْثَقَ لَهُ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَقَرَّ لَهُ ٱلْمُلْكُ طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ . وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا فَهَابَتْهُ ٱلرَّعِيَّةُ . فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسَّطْوَةِ عَبِثَ بِٱلرَّعِيَّةِ وَٱسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ ٱلسِّيرَةَ فِيهِمْ وَكَانَ لَا يَرْتَقِي حَالُهُ إِلَّا ٱزْدَادَ عُتُوًّا

فَمَكَثَ عَلَى ذٰلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوفٌ مِنَ ٱلْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ وَيُرْجَعُ فِي ٱلْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ: يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا . فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ فَكَّرَ فِي وَجْهِ ٱلْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَرَدِّهِ إِلَى

ٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنْصَافِ. فَجَمَعَ لِذٰلِكَ تَلَامِذَتَهُ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُشَاوِرَكُمْ فِيهِ. ٱعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ ٱلْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلُزُومِ ٱلشَّرِّ وَرَدَاءَةِ ٱلسِّيرَةِ وَسُوءِ ٱلْعِشْرَةِ مَعَ ٱلرَّعِيَّةِ. وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ ٱلْخَيْرِ وَلُزُومِ ٱلْعَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذٰلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَنَا مِنْ وُقُوعِ ٱلْمَكْرُوهِ بِنَا وَبُلُوغِ ٱلْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا أَنْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ ٱلْجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ وَفِي ٱلْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ. وَلَيْسَ ٱلرَّأْيُ عِنْدِي ٱلْجَلَاءَ عَنِ ٱلْوَطَنِ وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ ٱلسِّيرَةِ وَقُبْحِ ٱلطَّرِيقَةِ. وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ. وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذٰلِكَ بَوَارُنَا. وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوَرَةَ ٱلسَّبُعِ وَٱلْكَلْبِ وَٱلْحَيَّةِ وَٱلثَّوْرِ عَلَى طِيبِ ٱلْوَطَنِ وَنَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ غَدْرٌ بِٱلنَّفْسِ. وَإِنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ ٱلْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ ٱلْمَحْذُورِ وَيَدْفَعُ ٱلْمَخُوفَ لِٱسْتِجْلَابِ ٱلْمَحْبُوبِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتِلْمِيذِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ ٱلسُّوءِ وَٱلْمُصَاحَبَةَ لَهُمْ كَرَاكِبِ ٱلْبَحْرِ إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ ٱلْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ. فَإِذَا أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ ٱلْمُهْلِكَاتِ وَمَصَادِرَ ٱلْمَخُوفَاتِ عُدَّ مِنَ ٱلْحَمِيرِ

ٱلَّتِي لَا نَفسَ لَهَا. لِأَنَّ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ ٱلنَّفعَ وَتَتَوَقَّى ٱلْمَكْرُوهَ. لِذٰلِكَ لَمْ تَرَهَا تُورِدُ أَنفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُهَا. وَإِنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا ٱلَّتِي رُكِّبَتْ فِيهَا شُحًّا بِأَنفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا إِلَى ٱلنُّفُورِ وَٱلتَّبَاعُدِ عَنْهُ

وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ. فَإِنَّ ٱلْوَحِيدَ بِنَفْسِهِ وَٱلْمُنفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلَا نَاصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ ٱلْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِٱلْخَيْلِ وَٱلْجُنُودِ. وَٱلْمَثَلُ فِي ذٰلِكَ. أَنَّ قُنْبَرَةً ٱتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفِيلِ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عُشَّ ٱلْقُنْبَرَةِ وَهَشَّمَ بَيْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاخَهَا. فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَهَا عَلِمَتْ أَنَّ ٱلَّذِي نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ. فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَةً. ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ. لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاخِي وَأَنَا فِي جِوَارِكَ أَفَعَلْتَ هٰذَا ٱسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَٱحْتِقَارًا لِشَأْنِي قَالَ هُوَ ٱلَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ: فَتَرَكَتْهُ وَٱنصَرَفَتْ إِلَى جَمَاعَةِ ٱلطَّيْرِ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ. فَقَالَتْ لَهَا: وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ: فَقَالَتْ لِلْعَقَاعِقِ وَٱلْغِرْبَانِ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَيْهِ فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى:

فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى ٱلْفِيلِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْقُرُونَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبُوا بِهِمَا وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ. فَلَمَّا عَلِمَتْ ذٰلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ. قَالَتِ ٱلضَّفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ ٱلْفِيلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ: قَالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَنِقُّوا (١) فِيهَا وَتَضِجُّوا فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشُكَّ فِي ٱلْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا: فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَٱجْتَمَعُوا فِي ٱلْهَاوِيَةِ. فَسَمِعَ ٱلْفِيلُ نَقِيقَ ٱلضَّفَادِعِ وَقَدْ جَهَدَهُ ٱلْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي ٱلْوَهْدَةِ فَٱعْتَطَمَ فِيهَا وَجَاءَتِ ٱلْقُنْبُرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ: أَيُّهَا ٱلطَّاغِي ٱلْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ٱلْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ

فَلْيُشِرْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ: قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَيُّهَا ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْحَكِيمُ ٱلْعَادِلُ أَنْتَ ٱلْمُقَدَّمُ فِينَا وَٱلْفَاضِلُ عَلَيْنَا وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمُنَا عِنْدَ فَهْمِكَ. غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ ٱلسِّبَاحَةَ فِي ٱلْمَاءِ مَعَ ٱلتِّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ وَٱلذَّنْبَ

---

(١) يقال للضفدع والعقرب والدجاجة والهر نقَّ اي صات وللافعى فحَّ والارنب ضغب والسنور ماء والكلب نبح والخنزير قبع والليث زئر والسبع جلجل والذئب هوى والثعلب ضبح والظبي بغم والغراب نعب والبازي صرصر والنسر صفر والحمام هدر والبط بقبق والصقر فقفق والذباب طنَّ والعصفور شقشق والجمل هدر والفيل صأى والمعز يعر والشاة ثغت والعجل خار والفرس صهل والبغل شحج والمفو نق

فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ. وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السُّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ. وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَابَتِهِ لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتَهُ. وَهٰذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْزِعْهُ النَّوَائِبُ وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجَارِبُ وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَنْفُسِنَا سَطْوَتَهُ. وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ: فَقَالَ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ لٰكِنَّ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمَ لَا يَدَعُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ. وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمُجَاوَبَتِي إِيَّاهُ. فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ: وَصَرَفَهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ حَتَّى إِذَا كَانَ ذٰلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوحَهُ وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ: فَدَخَلَ الْآذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ وَقَالَ: بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً: فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَّرَ وَسَجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى قَائِمًا وَسَكَتَ. وَفَكَّرَ دَبْشَلِيمُ فِي سُكُوتِهِ وَقَالَ: إِنَّ هٰذَا لَمْ يَقْصِدْنَا

إِلَّا لِأَمْرَيْنِ . إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ . أَوْ لِأَمْرٍ لَحِقَهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ . لِأَنَّ ٱلْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ ٱلْمُلُوكِ بِٱلْعِلْمِ وَلَيْسَ ٱلْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ ٱلْحُكَمَاءِ بِٱلْمَالِ . وَقَدْ وَجَدْتُ ٱلْعِلْمَ وَٱلْحَيَاءَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ ٱلْآخَرُ كَٱلْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْسًا بِٱلْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ وَيُكْرِمْهُمْ وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصُنْهُمْ عَنِ ٱلْمَوَاقِفِ ٱلْوَاهِنَةِ وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ ٱلْمَوَاطِنِ ٱلرَّذْلَةِ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَظَلَمَ ٱلْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ وَعُدَّ مِنَ ٱلْجُهَّالِ : ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَاكِتًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ فَقُلْتُ : إِنَّ ٱلَّذِي أَسْكَتَهُ هَيْبَةٌ سَاوَرَتْهُ أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذٰلِكَ مِنْ طُولِ وُقُوفِكَ وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرٍ حَرَّكَهُ لِذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَيْمٍ نَالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي ٱلْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ . وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ ٱلدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذٰلِكَ فِيمَا أَحَبَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُلْكِ وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَنْقَادُوا إِلَيْهِ

نَظَرْتُ فِي قَدَرِ عُقُوبَتِهِ. عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ ٱلْمُلُوكِ. وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ ٱلرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ صَرْفَ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَا هُوَ. فَإِنَّ ٱلْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِٱلْخَيْرِ وَٱلْجُهَّالُ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ بِٱلْكَلَامِ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذٰلِكَ بَيْدَبَا مِنَ ٱلْمَلِكِ أُفْرِجَ عَنْهُ رَوْعُهُ وَسُرِّيَ عَنْهُ مَا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ. ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: أَوَّلُ مَا أَقُولُ. أَسْأَلُ ٱللّٰهَ تَعَالَى بَقَاءَ ٱلْمَلِكِ عَلَى ٱلْأَبَدِ وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى ٱلْأَمَدِ. لِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي ٱلْمَلِكُ فِي مَقَامِي هٰذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ. وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى ٱلدَّهْرِ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرِحًا بِمَا بَدَا لَهُ مِنْهُ وَقَالَ: قَدْ عَطَفَ ٱلْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ. وَٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي دَعَانِي إِلَى ٱلدُّخُولِ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَحَمَلَنِي عَلَى ٱلْمُخَاطَرَةِ فِي كَلَامِهِ وَٱلْإِقْدَامِ إِلَى ٱلْمَلِكِ نَصِيحَةٌ ٱخْتَصَصْتُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ وَسَيَعْلَمُ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذٰلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّرْ عَنْ غَايَةٍ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى ٱلْحُكَمَاءِ. فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيقٌ بِذٰلِكَ وَمَا يَرَاهُ. وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزَمُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي: قَالَ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ مَهْمَا شِئْتَ فَإِنَّنِي مُصْغٍ إِلَيْكَ وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ وَسَامِعٌ مِنْكَ حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ وَأُجَازِيَكَ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ

قَالَ بَيْدَبَا: إِنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي ٱخْتَصَّ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ وَهِيَ جِمَاعُ مَا فِي ٱلْعَالَمِ وَهِيَ: ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَقْلُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْعِلْمُ وَٱلْأَدَبُ وَٱلرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْحِكْمَةِ. وَٱلْحِلْمُ وَٱلصَّبْرُ وَٱلْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعَقْلِ. وَٱلْحَيَاءُ وَٱلْكَرَمُ وَٱلصِّيَانَةُ وَٱلْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعِفَّةِ. وَٱلصِّدْقُ وَٱلْإِحْسَانُ وَٱلْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ ٱلْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعَدْلِ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَحَاسِنُ وَأَضْدَادُهَا هِيَ ٱلْمَسَاوِئُ فَمَتَى كَمُلَتْ هٰذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ ٱلزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ ٱلْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَا إِلَى نَقْصٍ وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ ٱلتَّوْفِيقُ بِبَقَائِهِ وَلَمْ يَحْزُنْهُ مَا تَجْرِي بِهِ ٱلْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ وَلَمْ يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهٍ. فَٱلْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى عَلَى إِنْفَاقٍ. وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِٱلْإِمْلَاقِ وَحُلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتُهَا وَلَذَّةٌ لَا تُصْرَمُ مُدَّتُهَا. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقَامِي بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ أَمْسَكْتُ عَنِ ٱبْتِدَائِهِ بِٱلْكَلَامِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَٱلْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا لَاسِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلَّتِي جَلَّ فِيهَا ٱلْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعُلَمَاءُ: ٱلْزَمِ ٱلسُّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً وَتَجَنَّبِ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ ٱلنَّدَامَةُ

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ فَقَالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلُّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

أَفْضَـلُ خَلَّةِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلسُّكُوتُ : وَقَالَ ٱلثَّانِي : إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ ٱلْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْـلِهِ : وَقَالَ ٱلثَّالِثُ : أَنْفَعُ ٱلْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيـهِ : قَالَ ٱلرَّابِعُ : أَرْوَحُ ٱلْأُمُورِ لِلْإِنْسَانِ ٱلتَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ : وَٱجْتَمَعَ فِي بَعْضِ ٱلزَّمَانِ مُلُوكُ ٱلْأَقَالِيمِ مِنَ ٱلصِّـينِ وَٱلْهِنْدِ وَفَارِسَ وَٱلرُّومِ وَقَالُوا : يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوَّنُ عَنْـهُ عَلَى غَابِرِ ٱلدَّهْرِ : قَالَ مَلِكُ ٱلصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ : قَالَ مَلِكُ ٱلْهِنْدِ عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِٱلْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ : قَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِٱلْكَلِمَـةِ مَلَكَتْنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا : قَالَ مَلِكُ ٱلرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا . وَٱلسُّكُوتُ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْهَذَرِ ٱلَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ وَأَفْضَلُ مَا بِهِ ٱسْتَظَلَّ ٱلْإِنْسَانُ لِسَانُهُ

غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَلِكَ أَطَالَ ٱللهُ مُدَّتَـهُ لَمَّا فَسَحَ لِي فِي ٱلْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةُ ذٰلِكَ لَهُ دُونِي وَأَنَا أَخْتَصُّهُ بِٱلْفَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ ٱلْعُقْبَى هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَأَكُونُ أَنَا قَضَيْتُ فَرْضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ : أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِـكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ ٱلْجَبَابِرَةِ ٱلَّذِينَ أَسَّسُوا ٱلْمُلْكَ قَبْلَكَ

وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ وَبَنَوا ٱلْقِلَاعَ وَٱلْحُصُونَ وَمَهَّدُوا ٱلْبِلَادَ وَقَادُوا ٱلْجُيُوشَ وَٱسْتَجَاشُوا ٱلْعُدَّةَ وَطَالَتْ لَهُمُ ٱلْمُدَّةُ وَٱسْتَكْثَرُوا مِنَ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْكُرَاعِ وَعَاشُوا ٱلدُّهُورَ فِي ٱلْغِبْطَةِ وَٱلسُّرُورِ . فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذٰلِكَ مِنِ ٱكْتِسَابِ جَمِيلِ ٱلذِّكْرِ وَلَا قَطَعَهُمْ عَنِ ٱغْتِنَامِ ٱلشُّكْرِ وَلَا ٱسْتِعْمَالِ ٱلْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خُوِّلُوهُ وَٱلْإِرْفَاقِ بِمَنْ وُلُّوهُ وَحُسْنِ ٱلسِّيرَةِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ ٱلْمُلْكِ وَسَكْرَةِ ٱلِاقْتِدَارِ

وَإِنَّكَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلسَّعِيدُ جَدُّهُ ٱلطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ فَأَقَمْتَ فِيمَا خُوِّلْتَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَوَرِثْتَ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْجُنُودِ . فَلَمْ تَقُمْ فِي ذٰلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ وَأَسَأْتَ ٱلسِّيرَةَ وَعَظُمَتْ مِنْكَ ٱلْبَلِيَّةُ . وَكَانَ ٱلْأَوْلَى وَٱلْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ وَتَتَّبِعَ آثَارَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَكَ وَتَقْفُوَ مَحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ وَتُقْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لَازِمٌ لَكَ وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ عَلَيْكَ . وَتُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ وَتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ وَيُعْقِبُكَ ٱلْجَمِيلَ فَخْرُهُ . وَيَكُونَ ذٰلِكَ أَبْقَى عَلَى ٱلسَّلَامَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى ٱلِاسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ ٱلْمُغْتَرَّ مَنِ ٱسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ ٱلْبَطَرَ وَٱلْأُمْنِيَّةَ . وَٱلْحَازِمَ ٱللَّبِيبَ مَنْ سَاسَ ٱلْمُلْكَ بِٱلْمُدَارَاةِ وَٱلرِّفْقِ . فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ وَلَا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ فَلَمْ

أَتَكَلَّمِ ٱبْتِغَاءَ غَرَضٍ تُجَازِينِي بِهِ وَلَا ٱلْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ وَلٰكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضَى مُنَاصَحَةَ ٱلْمَلِكِ أَوْغَرَ قَلْبَ ٱلْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي ٱلْجَوَابِ ٱسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ وَقَالَ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ. فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ وَضَعْفِ بِنْيَتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ. وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ. وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ ٱلتَّنْكِيلِ بِكَ. فَذٰلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ: ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ. فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ

فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ بِطَلَبِ تَلَامِذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي ٱلْبِلَادِ وَٱعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ ٱلْبِحَارِ. فَمَكَثَ بَيْدَبَا فِي حَبْسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ ٱلْمَلِكُ عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ. حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ ٱللَّيَالِي سَهِدَ ٱلْمَلِكُ سُهْدًا شَدِيدًا فَطَالَ سُهْدُهُ فَمَدَّ إِلَى ٱلْفَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ ٱلْفَلَكِ وَحَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ. فَأَغْرَقَ ٱلْفِكْرُ فِيهِ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى ٱسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ ٱلْفَلَكِ وَٱلْمَسْأَلَةِ عَنْهُ. فَذَكَرَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْدَبَا وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ

بِــهِ فَأَرْعَوَى لِذٰلِكَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهٰذَا ٱلْفَيْلَسُوفِ وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَحَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ. فَقَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي ٱلْمُلُوكِ. أَلْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ ٱلْأَشْيَاءِ مَقْتًا. وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ. وَٱلْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ. وَٱلرِّفْقُ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ ٱلسَّفَــهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ بَلَّاغًا فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا كَانَ هٰذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ ٱلْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ: ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ.

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ ٱلَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا: فَقَالَ لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِحُ ٱلشَّفِيقُ ٱلصَّادِقُ ٱلرَّفِيقُ إِنَّمَا نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ: قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ: فَجَعَلَ بَيْدَبَا يَنْثُرُ كَلَامَهُ وَٱلْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُتُ ٱلْأَرْضَ بِشَيْءٍ فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَأَمَرَهُ بِٱلْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنِّي قَدِ ٱسْتَعْذَبْتُ كَلَامَكَ وَحُسْنَ وَقْعِهِ مِنْ قَلْبِي وَأَنَا نَاظِرٌ فِي ٱلَّذِي أَشَرْتَ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتُ: ثُمَّ أَمَرَ بِقُيُودِهِ فَحُلَّتْ وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ. فَقَالَ بَيْدَبَا:

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ: قَالَ: صَدَقْتَ أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي مَمْلَكَتِي: فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هٰـذَا ٱلْأَمْرِ فَإِنِّي لَسْتُ مُضْطَلِعًا بِتَقْوِيمِـهِ: فَأَعْفَاهُ مِنْ ذٰلِكَ. فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ ٱلَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ فَبَعَثَ فَرَدَّهُ. وَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ فِيمَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ وَلَا يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ. فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذٰلِكَ

وَكَانَ عَادَةُ ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ إِذَا ٱسْتَوْزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا وَيَرْكَبَ فِي أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ وَيُطَافَ بِهِ فِي ٱلْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ ذٰلِكَ بِبَيْدَبَا. فَوُضِعَ ٱلتَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ وَرَكِبَ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَرَجَعَ وَجَلَسَ بِمَجْلِسِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنْصَافِ يَأْخُذُ لِلدَّنِيءِ مِنَ ٱلشَّرِيفِ وَيُسَاوِي بَيْنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلضَّعِيفِ وَرَدَّ ٱلْمَظَالِمَ وَوَضَعَ سُنَنَ ٱلْعَدْلِ وَأَكْثَرَ مِنَ ٱلْعَطَاءِ وَٱلْبَذْلِ. وَٱتَّصَلَ ٱلْخَبَرُ بِتَلَامِذَتِهِ فَجَاؤُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا قَدَّرَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ ٱلْمَلِكِ فِيـهِ. وَشَكَرُوا ٱللّٰهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْـهِ مِنْ سُوءِ ٱلسِّيرَةِ. وَٱتَّخَذُوا ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ عِيدًا يُعَيِّدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى ٱلْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ ٱلْهِنْدِ.

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا خَلَا فِكْرُهُ مِنِ ٱشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ ٱلسِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا. فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا دَقَائِقُ ٱلْحِيَلِ

وَمَضَى ٱلْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرَةِ وَٱلْعَدْلِ فِي ٱلرَّعِيَّةِ . فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ ٱلْأُمُورُ عَلَى ٱسْتِوَائِهَا . وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا وَقَالَ لَهُمْ : لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقْتَ دُخُولِي عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ إِذْ عَزَمَ عَلَى ٱلدُّخُولِ عَلَى هٰذَا ٱلْجَبَّارِ ٱلطَّاغِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصِحَّةَ فِكْرِي وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ: إِنَّ ٱلْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ ٱلشَّرَابِ : فَٱلْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ ٱلسَّكْرَةِ إِلَّا بِمَوَاعِظِ ٱلْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ ٱلْحُكَمَاءِ . وَٱلْوَاجِبُ عَلَى ٱلْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ ٱلْعُلَمَاءِ . وَٱلْوَاجِبُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ ٱلْمُلُوكِ بِأَلْسِنَتِهَا وَتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا وَإِظْهَارُ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱللَّازِمَةِ لَهُمْ لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلِٱعْوِجَاجِ وَٱلْخُرُوجِ عَنِ ٱلْعَدْلِ . فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ ٱلْعُلَمَاءُ فَرْضًا وَاجِبًا عَلَى ٱلْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سَكْرَتِهِمْ كَٱلطَّبِيبِ ٱلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ ٱلْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى ٱلصِّحَّةِ . فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَلَا يَبْقَى عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا ٱلْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ ٱلطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ قَالُوا كَانَ ٱلْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ

أَوْلَى بِـهِ وَٱلِاِنْزِعَاجُ عَنِ ٱلْوَطَنِ شَدِيدٌ . فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا . فَحَمَلْتُهَا عَلَى ٱلتَّغْرِيرِ وَٱلظَّفَرِ بِمَا أُرِيدُهُ . وَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ . فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ . إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ ٱلْأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ ٱلرَّغَائِبَ . وَإِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيـهِ ضُرُوبُ ٱلْحِكْمَةِ . فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهْمُهُ: قَالُوا: أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ وَٱللَّبِيبُ ٱلْعَاقِلُ وَٱلَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلْفَضِيلَةِ مَا خَطَرَ هٰذَا بِقُلُوبِنَا قَطُّ وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا وَعَلَى يَدِكَ ٱنْتِعَاشُنَا وَلٰكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ

وَمَكَثَ ٱلْمَلِكُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرَةِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذٰلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيَقُومُ بِهِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا ٱسْتَقَرَّ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَسَقَطَ عَنْهُ ٱلنَّظَرُ فِي أُمُورِ ٱلْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذٰلِكَ بَيْدَبَا صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْهِنْدِ لِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ . فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْـهِ تُذْكَرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ . فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذٰلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِذٰلِكَ إِلَّا بَيْدَبَا فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ:

يا بيدبا إنك حكيم الهند وفيلسوفها وإني فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي فلم أر فيهم أحداً إلا وقد وضع كتاباً يذكر فيه أيامه وسيرته وينبئ عن أدبه وأهل مملكته . فمنه ما وضعه الملوك لأنفسها وذلك لفضل حكمة فيها . ومنه ما وضعته حكماؤها . وأخاف أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة لي فيه ولا يوجد في خزائني كتاب أذكر فيه بعدي وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي بكتبهم . وقد أحببت أن تضع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك . يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته فيسقط بذلك عني وعنهم ما نحتاج إليه في معاناة الملك . وأريد أن يبقى لي هذا الكتاب بعدي ذكراً على غابر الدهور

فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجداً ورفع رأسه وقال : أيها الملك السعيد جده . علا نجمك وغاب نحسك ودامت أيامك . إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركه لعالي الأمور وسمت به نفسه وهمته إلى أشرف المراتب منزلة وأبعدها غاية . وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك وأعانني على بلوغ مراده . فليأمر الملك بما شاء من ذلك فإني صائر إلى غرضه مجتهد فيه برأيي : قال له الملك : يا بيدبا لم تزل موصوفاً بحسن الرأي وطاعة الملوك في أمورهم . وقد اختبرت

مِنكَ ذٰلِكَ وَٱخترْتُ أَنْ تَضَعَ هٰذا ٱلْكِتَابَ وَتُعمِلَ فِيهِ فِكرَكَ وَتُجْهِدَ فِيهِ نَفسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ ٱلسَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى ٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلْفَلسَفَةِ. فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ وَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُ ٱلْمَلِكَ أَدَامَ ٱللهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ وَقَدْ جَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا: قَالَ: وَكَمْ هُوَ ٱلأَجَلُ: قَالَ: سَنَةٌ: قَالَ: قَدْ أَجَّلْتُكَ: وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ ٱلْكِتَابِ

فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي ٱلأَخْذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ ٱلْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرٍ فِيهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلَادِكُمْ وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا ٱلأَمْرِ: ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ ٱلْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي قَصَدَ فِيهِ فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ وَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ يَتِمُّ بِٱسْتِفْرَاغِ ٱلْعَقْلِ وَإِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَقَالَ: أَرَى ٱلسَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ إِلَّا بِٱلْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا. وَإِنَّمَا تَسْلُكُ ٱللُّجَّةَ بِمُدَبِّرِهَا ٱلَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا. وَمَتَى شُحِنَتْ بِٱلرُّكَّابِ ٱلْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَّاحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْغَرَقِ: وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى ٱلِٱنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلَامِذَتِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ. فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ ٱلْوَرَقِ ٱلَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ ٱلْهِنْدُ فِيهِ شَيْئًا وَمِنَ ٱلْقُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ وَبِتِلْمِيذِهِ تِلْكَ ٱلْمُدَّةَ. وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهِمَا ٱلْبَابَ. ثُمَّ

بَدَأَ فِي نَظْمِ ٱلْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى ٱسْتَقَرَّ ٱلْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْإِحْكَامِ . وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَٱلْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ . وَضَمَّنَ تِلْكَ ٱلْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لَهْوًا لِلْخَوَاصِّ وَٱلْعَوَامِّ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ ٱلْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ يَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسْمِ سَائِرِ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي بِرَسْمِ ٱلْحِكْمَةِ . فَصَارَ ٱلْحَيَوَانُ لَهْوًا وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكَمًا وَأَدَبًا . فَلَمَّا ٱبْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذٰلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ ٱلْكِتَابِ وَصْفَ ٱلصَّدِيقِ كَيْفَ يَكُونُ صَدِيقَانِ وَكَيْفَ تُقْطَعُ ٱلْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةِ ذِي ٱلنَّمِيمَةِ . وَأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ ٱلْمَلِكُ شَارَطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهْوًا وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ ٱلنَّقَلَةِ أَفْسَدَهَا وَٱسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا . فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ ٱلْفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ ٱلْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا ٱلْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ . فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ ٱللَّهْوِ وَٱلْهَزْلِ بِكَلَامِ ٱلْبَهَائِمِ وَكَانَتِ ٱلْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ . فَأَصْغَتِ ٱلْحُكَمَاءُ إِلَى حِكْمَتِهِ وَتَرَكُوا ٱلْبَهَائِمَ وَٱللَّهْوَ وَعَلِمُوا أَنَّهَا ٱلسَّبَبُ فِي

ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُمْ. وَمَالَتْ إِلَيْهِ ٱلْجُهَّالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ وَلَمْ يَشُكُّوا فِي ذٰلِكَ وَٱتَّخَذُوهُ لَهْوًا وَتَرَكُوا مَعْنَى ٱلْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ وَلَمْ يَعْلَمُوا ٱلْغَرَضَ ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ. لِأَنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ ٱلْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ ٱلْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى ٱلتَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ ٱلسِّعَايَةِ وَٱلتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ ٱلْعَدَاوَةَ بَيْنَ ٱلْمُتَحَابِّينَ لِيَجُرَّ بِذٰلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ

فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبَا وَتِلْمِيذُهُ فِي ٱلْمَقْصُورَةِ حَتَّى ٱسْتَتَمَّ عَمَلَ ٱلْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ. فَلَمَّا تَمَّ ٱلْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ: أَنْ قَدْ جَاءَ ٱلْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ: فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيْدَبَا: إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ ٱلْمَلِكَ فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِرَاءَتِي هٰذَا ٱلْكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ: فَلَمَّا رَجَعَ ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْمَلِكِ سُرَّ بِذٰلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ. ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ ٱلْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ ٱلْكِتَابِ. فَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ وَكَرَاسِيُّ لِأَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ. فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ ٱلثِّيَابَ ٱلَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى ٱلْمُلُوكِ وَهِيَ ٱلْمُسُوحُ ٱلسُّودُ وَحَمَّلَ ٱلْكِتَابَ تِلْمِيذَهُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَثَبَ ٱلْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ ٱلْمَلِكُ شَاكِرًا. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ ٱلْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. فَقَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا ٱرْفَعْ رَأْسَكَ فَإِنَّ هٰذَا يَوْمُ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ: وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ. فَحِينَ

جَلَسَ لِقِرَاءَةِ ٱلْكِتَابَ. سَأَلَهُ ٱلْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ. فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ. فَٱزْدَادَ ٱلْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا فَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ ٱلَّذِي فِي نَفْسِي وَهٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَٱطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ. فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِٱلسَّعَادَةِ وَطُولِ ٱلْجَدِّ وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ أَمَّا ٱلْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. وَأَمَّا ٱلْكُسْوَةُ فَلَا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هٰذَا شَيْئًا وَلَسْتُ أُخْلِي ٱلْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ: قَالَ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ. فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ. قَالَ: يَأْمُرُ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هٰذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ. وَيَأْمُرُ بِٱلِاحْتِيَاطِ عَلَيْهِ. فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ. فَلْيَأْمُرِ ٱلْمَلِكُ أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ ٱلْحِكْمَةِ: ثُمَّ دَعَا ٱلْمَلِكُ بِتَلَامِذَتِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ ٱلْجَوَائِزَ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَكَانَ مُسْتَأْثِرًا بِٱلْكُتُبِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ ٱلْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ ٱلْكِتَابِ فَلَمْ يَقِرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بَرْزَوَيْهِ ٱلطَّبِيبَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فَأَقَرَّهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ

نُخْبَةٌ

مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ

فِي بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إِلَى بِلَادِ ٱلْهِنْدِ

وَقَدْ رَزَقَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ ٱلسَّعِيدَ أَنُوشَرْوَانَ مِنَ ٱلْعَقْلِ أَفْضَلَهُ وَمِنَ ٱلْعِلْمِ أَجْزَلَهُ وَمِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْأُمُورِ أَصْوَبَهَا وَسَدَّدَهُ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ إِلَى أَسَدِّهَا وَمِنَ ٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْأُصُولِ وَٱلْفُرُوعِ إِلَى أَنْفَعِهِ. وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُونِ ٱخْتِلَافِ ٱلْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ ٱلْفَلَاسِفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ. حَتَّى كَانَ فِي مَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابٍ بِٱلْهِنْدِ عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ وَٱلدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ. فَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ وَزِيرَهُ بُزُرْجُمْهِرَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بَصِيرٍ بِلِسَانِ ٱلْفَارِسِيَّةِ مَاهِرٍ فِي كَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَيَكُونُ بَلِيغًا بِٱللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا. حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ مُجْتَهِدًا فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَدَبِ مُبَادِرًا فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ كُتُبِ ٱلْفَلَاسِفَةِ. فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ مَاهِرٍ فِي ٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ بَرْزَوَيْهِ

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَرْزَوَيْهِ إِنِّي قَدِ ٱخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابٍ بِٱلْهِنْدِ مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ: وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي

مَرْحَلُكَ إِلَى أَرْضِ ٱلْهِنْدِ فَتَلَطَّفْ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ لِٱسْتِخْرَاجِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قِبَلِ عُلَمَائِهِمْ فَتَسْتَفِيدَ مِنْ ذٰلِكَ وَتُفِيدَنَا . وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ ٱلْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَٱحْمِلْهُ مَعَكَ وَخُذْ مَعَكَ مِنَ ٱلْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَعَجِّلْ فِي ذٰلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ ٱلْعُلُومِ . وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ ٱلنَّفَقَةَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ ٱلْعُلُومِ : وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ ٱلْمُنَجِّمِينَ فَٱخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ ٱلْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ

فَلَمَّا قَدِمَ بَرْزَوَيْهِ بِلَادَ ٱلْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ ٱلْمَلِكِ وَمَجَالِسِ ٱلسُّوقَةِ وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ ٱلْمَلِكِ وَٱلْأَشْرَافِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ . فَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَتَلَقَّاهُمْ بِٱلتَّحِيَّةِ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِطَلَبِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَدَبِ . وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ. فَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا . وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذٰلِكَ يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ وَحَاجَتَهُ . وَٱتَّخَذَ فِي تِلْكَ ٱلْحَالَةِ لِطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ ٱلْأَشْرَافِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْفَلَاسِفَةِ وَٱلسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ. وَكَانَ قَدِ ٱتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدِ ٱتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يَجِبُ مُشَاوَرَتُهُ فِيهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَلِمَا ٱسْتَبَانَ

لَهُ مِنْ صِحَّةِ إِخَائِهِ وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي ٱلْأُمُورِ وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا أَهَمَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ يَبْلُوَهُ وَيَخْتَبِرَهُ. وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ: يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ ٱلَّذِي كَتَمْتُكَ. فَاعْلَمْ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ وَهُوَ غَيْرُ ٱلَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي وَٱلْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ ٱلرَّجُلِ بِٱلْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُ قَلْبُهُ. قَالَ لَهُ ٱلْهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتَ لَهُ وَإِيَّاهُ تُرِيدُ وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ. فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذٰلِكَ مِنْكَ وَلٰكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ وَأَنَّهُ قَدِ ٱسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ عَنِّي. فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذٰلِكَ وَأَفْصَحْتَ بِهِ وَبِٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيرَتَكَ وَمُعْلِمُكَ بِحَالِكَ ٱلَّتِي قَدِمْتَ لَهَا بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا ٱلنَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسُرَّ بِهَا مَلِكَكَ وَكَانَ قُدُومُكَ بِٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ. وَلٰكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُوَاظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَٱلتَّحَفُّظِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ ٱلْكَلَامُ مَعَ طُولِ مُكْثِكَ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ ٱزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ وَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ. فَإِنِّي لَمْ أَرَ فِي ٱلرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا وَلَا أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَلَا أَكْتَمُ لِسِرِّهِ مِنْكَ وَلَا سِيَّمَا فِي

بِلَادِ غُرْبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ . وَإِنَّ عَقْلَ ٱلرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ ٱلْأُولَى مِنْهَا ٱلرِّفْقُ . وَٱلثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا . وَٱلثَّالِثَةُ طَاعَةُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلتَّحَرِّي لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَٱلرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلِعَ عَلَيْهِ صَدِيقَهُ . وَٱلْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِقَ ٱللِّسَانِ . وَٱلسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَٱلسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ . وَٱلثَّامِنَةُ أَنْ يَكُونَ بِٱلْمَحْفِلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كَانَ هُوَ ٱلدَّاعِيَ ٱلْخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كُلُّهَا قَدِ ٱجْتَمَعَتْ فِيكَ وَبَانَتْ لِي مِنْكَ . فَٱللّٰهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِينُكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ فَمُصَادَقَتُكَ إِيَّايَ لِتَسْلُبَنِي كَنْزِي وَفَخْرِي وَعِلْمِي . فَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسْعَفَ بِحَاجَتِكَ وَتُشَفَّعَ بِطَلِبَتِكَ وَتُعْطَى سُؤْلَكَ

فَقَالَ لَهُ بَرْزَوَيْهِ : إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا وَشَعَّبْتُ لَهُ شِعَابًا وَأَنْشَأْتُ لَهُ أُصُولًا وَطُرُقًا . فَلَمَّا ٱنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنِ ٱطِّلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي وَٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ وَأَلْقَيْتَهُ عَلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِي مَا أَلْقَيْتَ مِنَ ٱلْقَوْلِ ٱكْتَفَيْتُ بِٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْخِطَابِ مَعَكَ وَعَرَفْتُ ٱلْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِٱلصَّغِيرِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَٱقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي

عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى ٱلْفَيْلَسُوفِ وَٱلسِّرَّ إِذَا ٱسْتُودِعَ ٱللَّبِيبَ ٱلْحَافِظَ فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَايَةُ أَمَلِ صَاحِبِهِ كَمَا يُحَصَّنُ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّفِيسُ فِي ٱلْقِلَاعِ ٱلْحَصِينَةِ : قَالَ ٱلْهِنْدِيُّ : لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَوَدَّةِ وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يُخَالِطَهُ ٱلرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَذْخَرَ عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا . فَإِنَّ حِفْظَ ٱلسِّرِّ رَأْسُ ٱلْأَدَبِ فَإِذَا كَانَ ٱلسِّرُّ عِنْدَ ٱلْأَمِينِ ٱلْكَتُومِ فَقَدِ ٱحْتُرِزَ مِنَ ٱلتَّضْيِيعِ مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِهِ . وَلَا يُكْتَمُ سِرٌّ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَا فِيهِ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِٱلسِّرِّ ٱثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْآخَرِ فَإِذَا صَارَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ وَيُكَابِرَ فِيهِ كَالْغَيْمِ إِذَا كَانَ مُنْقَطِعًا فِي ٱلسَّمَاءِ . فَقَالَ قَائِلٌ غَيْمٌ مُنْقَطِعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا فَقَدْ يُدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخُلْطَتِكَ سُرُورٌ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ ٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشُوَ وَيَظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ ٱلنَّاسُ . فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِي هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِدَاءِ مِنْهُ بِٱلْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ . لِأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌّ غَلِيظٌ يُعَاقِبُ عَلَى ٱلذَّنْبِ ٱلصَّغِيرِ أَشَدَّ ٱلْعِقَابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هٰذَا ٱلذَّنْبِ ٱلْعَظِيمِ وَإِذَا حَمَلَتْنِي ٱلْمَوَدَّةُ ٱلَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابَهُ عَنِّي شَيْءٌ

قَالَ بَرْزَوَيْهِ : إِنَّ ٱلْعُلَمَا قَدْ مَدَحَتِ ٱلصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ

وَأَعَانَهُ عَلَى ٱلْفَوْزِ. وَهٰـذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ ٱلطَّائِفِينَ بِكَ وَبِٱلْمَلِكِ أَنْ يَسْعَوْا بِكَ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقَمْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا. فَتَعَاهَدَا عَلَى هٰذَا جَمِيعًا: فَأَجَابَهُ ٱلْهِنْدِيُّ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ وَجِلٌ فَزِعٌ مِنْ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمَلِكُ ٱلْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خِزَانَتِهِ

فَلَمَّا فَرَغَ مِنِ ٱنْتِسَاخِ ٱلْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ ٱلْكُتُبِ كَتَبَ إِلَى أَنُوشِرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْكِتَابُ سُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا. ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ ٱلْمَقَادِيرِ أَنْ تُنَغِّصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ فَكَتَبَ إِلَى بَرْزَوَيْهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ ٱلْقُدُومِ. فَسَارَ بَرْزَوَيْهِ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ ٱلشُّحُوبِ وَٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْعَبْدُ ٱلنَّاصِحُ ٱلَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا قَدْ غَرَسَ أَبْشِرْ وَقَرَّ عَيْنًا فَإِنِّي مُشَرِّفُكَ بَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ دَرَجَةٍ: وَأَمَرَهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ

فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلسَّابِعُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ ٱلْأُمَرَاءُ

وَٱلْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا ٱجْتَمَعُوا أَمَرَ بَرْزَوَيْهِ بِٱلْحُضُورِ فَحَضَرَ وَمَعَهُ ٱلْكُتُبُ فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ ٱلْعِلْمِ فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرُوا ٱللهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَمَدَحُوا بَرْزَوَيْهِ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبَرْزَوَيْهِ خَزَائِنُ ٱللُّؤْلُؤِ وَٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ ٱلْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ وَكُسْوَةٍ وَقَالَ: يَا بَرْزَوَيْهِ إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هٰذَا وَتَلْبَسَ تَاجًا وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ ٱلْأَشْرَافِ . فَسَجَدَ بَرْزَوَيْهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ وَطَلَبَ مِنَ ٱللهِ وَقَالَ : أَكْرَمَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْمَلِكَ كَرَامَةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ . فَإِنِّي بِحَمْدِ ٱللهِ مُسْتَغْنٍ عَنِ ٱلْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي ٱللهُ عَلَى يَدِ ٱلْمَلِكِ ٱلسَّعِيدِ ٱلْجَدِّ ٱلْعَظِيمِ ٱلْمُلْكِ وَلَا حَاجَةَ لِي بِٱلْمَالِ . لٰكِنْ لَمَّا كَلَّفَنِي ذٰلِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى ٱلْخَزَائِنِ فَأَنَا آخُذُ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ وَٱمْتِثَالًا لِأَمْرِهِ : ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ ٱلثِّيَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا تُحَفًا مِنْ طَرَائِفِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَلَابِسِ ٱلْمُلُوكِ

فَلَمَّا قَبَضَ بَرْزَوَيْهِ مَا ٱخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ ٱلثِّيَابِ قَالَ : أَكْرَمَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ وَمَدَّ فِي عُمْرِهِ أَبَدَ ٱلْأَبَدِ . إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ ٱلشُّكْرُ وَإِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا إِرْضَاءُ ٱلْمَلِكِ . وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ ٱلشَّرَفَ يَا أَهْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هٰذَا

ٱلْيَوْمِ تَابِعًا رِضَاكُمْ أَرَى ٱلْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا وَٱلشَّاقَّ هَيِّنًا وَٱلنَّصَبَ وَٱلْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًى وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ. وَلٰكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ حَاجَةً تُسْعِفُنِي بِهَا وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ: قَالَ أَنُوشِرْوَانُ: فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَرُدَّ طَلِبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذٰلِكَ فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْذُولَةٌ لَكَ

قَالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَٱنْكِمَاشِي فِي طَاعَتِكَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزَمُنِي بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى ٱلْمَلِكِ. وَلٰكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ ٱلْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ ٱلدَّرَجَةِ حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَفَعَلَ فَجَزَاهُ ٱللّٰهُ عَنَّا أَفْضَلَ ٱلْجَزَاءِ. قَالَ أَنُوشِرْوَانُ: ٱذْكُرْ حَاجَتَكَ فَعَلَيَّ مَا يَسُرُّكَ: فَقَالَ بَرْزَوَيْهِ: حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ ٱلْمَلِكُ أَعْلَاهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَزِيرَهُ بُزُرْجُمْهَرَ بْنَ ٱلْبُخْتَكَانِ وَيُقْسِمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمِلَ فِكْرَهُ وَيَجْمَعَ رَأْيَهُ وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ كَلَامٍ مُتْقَنٍ مُحْكَمٍ وَيَجْعَلَهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي وَلَا يَدَعُ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ذٰلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرَهُ إِذَا ٱسْتَتَمَّ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْأَبْوَابِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ ٱلْأَسَدِ وَٱلثَّوْرِ. فَإِنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ

ذٰلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةُ ٱلشَّرَفِ وَأَعْلَى ٱلْمَرَاتِبِ وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى ٱلْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَٱلْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةِ إِبْقَاءِ ٱلذِّكْرِ وَٱسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَٱخْتِيَارَهُ قَالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرْزَوَيْهِ إِنَّكَ لَأَهْلٌ أَنْ تُسْعَفَ بِحَاجَتِكَ فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيمًا: ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِرْوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بُزُرْجُمِهْرَ. فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بَرْزَوَيْهِ لَنَا وَتَجَشُّمَهُ ٱلْمَخَاوِفَ وَٱلْمَهَالِكَ فِي مَا يُقَرِّبُهُ مِنَّا وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِي مَا يَسُرُّنَا وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ وَمَا أَفَادَنَا ٱللهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْأَدَبِ ٱلْبَاقِي لَنَا فَخْرُهُ وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذٰلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. فَلَمْ تَمِلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَآهُ هُوَ ٱلثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَٱلْكَرَامَةَ ٱلْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذٰلِكَ وَتُسْعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي وَلَا تَدَعْ شَيْئًا مِنَ ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَغْتَهُ وَإِنْ نَالَتْكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِتِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ ٱلَّتِي فِي ٱلْكِتَابِ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرْزَوَيْهِ وَكَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاءُ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ وَتَنْسُبَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ وَتَذْكُرَ فِيهِ بَعْثَتَهُ إِلَى بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أَفَدْنَا عَلَى يَدِهِ مِنْ هُنَاكَ وَشُرِّفْنَا بِهِ وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرْزَوَيْهِ وَقُدُومُهُ

مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ. فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّقْرِيظِ وَٱلْإِطْنَابِ فِي مَدْحِهِ وَبَالِغْ فِي ذٰلِكَ أَفْضَلَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱجْتَهِدْ فِي ذٰلِكَ ٱجْتِهَادًا يَسُرُّ بَرْزَوَيْهِ وَأَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ. فَإِنَّ بَرْزَوَيْهِ أَهْلٌ لِذٰلِكَ مِنِّي وَمِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ. وَٱجْهَدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرْزَوَيْهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ عِنْدَ ٱلْخَاصِّ وَٱلْعَامِّ وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً لِحَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ. فَإِنَّكَ أَسْعَدُ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمْ بِذٰلِكَ لِٱنْفِرَادِكَ بِهِ وَٱجْعَلْهُ أَوَّلَ ٱلْأَبْوَابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيَظْهَرَ فَضْلُكَ وَٱجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا فَيَكُونَ لَكَ بِذٰلِكَ فَخْرٌ.

فَلَمَّا سَمِعَ بُزُرْجُمْهُرُ مَقَالَةَ ٱلْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ : أَدَامَ ٱللّٰهُ لَكَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْبَقَاءَ وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ ٱلصَّالِحِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَى لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذٰلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى ٱلْأَبَدِ. ثُمَّ خَرَجَ بُزُرْجُمْهُرُ مِنْ عِنْدِ ٱلْمَلِكِ فَوَصَفَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى ٱلْمُعَلِّمِ وَمَضِيَّهُ إِلَى بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فِي طَلَبِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْأَدْوِيَةِ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِرْوَانُ إِلَى ٱلْهِنْدِ فِي طَلَبِ ٱلْكِتَابِ وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بَرْزَوَيْهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا نَسَقَهُ وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ مَا يَكُونُ مِنَ ٱلشَّرْحِ. ثُمَّ أَعْلَمَ ٱلْمَلِكَ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ. فَجَمَعَ أَنُوشِرْوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ

وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بُزُرْجُمَهْرَ بِقِرَاءَةِ ٱلْكِتَابِ وَبَرْزَوَيْهِ قَائِمٌ إِلَى جَانِبِ بُزُرْجُمَهْرَ وَٱبْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرْزَوَيْهِ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ فَفَرِحَ ٱلْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بُزُرْجُمَهْرُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْعِلْمِ . ثُمَّ أَثْنَى ٱلْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ عَلَى بُزُرْجُمَهْرَ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ وَأَمَرَ لَهُ ٱلْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُسْوَةٍ وَحُلِيٍّ وَأَوَانٍ . فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسْوَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ ٱلْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذٰلِكَ بَرْزَوَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ وَأَقْبَلَ بَرْزَوَيْهِ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَقَالَ: أَدَامَ ٱللهُ لَكَ ٱلْمُلْكَ وَٱلسَّعَادَةَ فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ ٱلشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُزُرْجُمَهْرَ مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي

نُخْبَةٌ
مِنْ تَأْرِيخِ ٱلْمُلُوكِ وَأَعْمَارِهِم
تأليفِ
أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ بْنِ يَزِيدَ ٱلطَّبَرِيِّ

في افتتاح الشام

مَعْرَكَةُ ٱلْوَاقُوصَةِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُبَشِّرٍ وَسَهْلٍ وَأَبِي عُثْمٰنَ عَنْ خَالِدٍ وَعُبَادَةَ وَأَبِي حَارِثَةَ . قَالُوا : وَأَوْعَبَ ٱلْقُوَّادُ بِٱلنَّاسِ نَحْوَ ٱلشَّأْمِ وَعِكْرِمَةُ رِدْءٌ لِلنَّاسِ وَبَلَغَ ٱلرُّومَ ذٰلِكَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ وَخَرَجَ هِرَقْلُ حَتَّى يَنْزِلَ بِحِمْصَ فَأَعَدَّ لَهُمُ ٱلْجُنُودَ وَعَبَّى لَهُمُ ٱلْعَسَاكِرَ وَأَرَادَ ٱشْتِغَالَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ جُنْدِهِ وَفُضُولِ رِجَالِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرٍو أَخَاهُ تَذَارِقَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ . فَخَرَجَ نَحْوَهُمْ فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ مَنْ يَسُوقُهُمْ حَتَّى نَزَلَ صَاحِبُ ٱلسَّاقَةِ ثَنِيَّةَ جِلِّقَ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ وَبَعَثَ جَرَجَةَ بْنَ تُودَرَا نَحْوَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيٰنَ فَعَسْكَرَ بِإِزَائِهِ وَبَعَثَ ٱلدُّرَاقِصَ فَٱسْتَقْبَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ وَبَعَثَ ٱلْقَيْقَارَ بْنَ نَسْطُوسَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا نَحْوَ أَبِي عُبَيْدَةَ . فَهَابَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ . وَجَمِيعُ فِرَقِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى عِكْرِمَةَ فِي سِتَّةِ آلَافٍ . فَفَزِعُوا جَمِيعًا بِٱلْكُتُبِ وَبِٱلرُّسُلِ إِلَى عَمْرٍو أَنْ مَا

ٱلرَّأْيُ. وَكَاتَبَهُمْ وَرَاسَلَهُمْ أَنِ ٱلرَّأْيُ ٱلِاجْتِمَاعُ وَذَٰلِكَ أَنَّ مِثْلَنَا إِذَا ٱجْتَمَعْنَا لَمْ نُغْلَبْ مِنْ قِلَّةٍ وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ يَبْقَ ٱلرَّجُلُ مِنَّا فِي عَدَدٍ يُقَرَّرُ فِيهِ لِأَحَدٍ مِمَّنِ ٱسْتَقْبَلَهُ. وَٱعَدَّ لَنَا لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَّا جُنْدًا فَٱتَّعِدُوا ٱلْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ. وَقَدْ كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا كَاتَبُوا بِهِ عَمْرًا فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ بِمِثْلِ رَأْيِ عَمْرٍو وَبَلَغَ ذَٰلِكَ هِرَقْلَ فَكَتَبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ أَنِ ٱجْتَمِعُوا لَهُمْ فَٱنْزِلُوا بِٱلرُّومِ مَنْزِلًا وَاسِعَ ٱلْعَطَنِ شَاسِعَ ٱلْمَطْرَدِ ضَيِّقَ ٱلْمَهْرَبِ. وَعَلَى ٱلنَّاسِ ٱلتَّذَارِقُ وَعَلَى ٱلْمُقَدِّمَةِ جَرَجَةُ وَعَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ بَاهَانُ وَٱلدَّرَاقِصُ وَعَلَى ٱلْحَرْبِ قَيْقَارُ وَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي ٱلْإِثْرِ مُمِدًّا لَكُمْ. فَفَعَلُوا فَنَزَلُوا ٱلْوَاقُوصَةَ وَهُوَ عَلَى ضَفَّةِ ٱلْيَرْمُوكِ وَصَارَ ٱلْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ وَهُوَ لِهْبٌ لَا يُدْرَكُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانُ وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَسْتَفِيءَ ٱلرُّومُ وَيَأْنَسُوا بِٱلْمُسْلِمِينَ وَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفْئِدَتُهُمْ عَنْ طَيْرَتِهَا. وَٱنْتَقَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمِ ٱلَّذِي ٱجْتَمَعُوا فِيهِ فَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ بِحِذَائِهِمْ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عَمْرٌو: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَبْشِرُوا حُصِرَتِ ٱلرُّومُ وَٱللهِ وَقَلَّمَا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ. فَأَقَامُوا بِإِزَائِهِمْ وَعَلَى طَرِيقِهِمْ وَمَخْرَجِهِمْ صَفَرَ مِنْ سَنَةِ ثَلٰثَ عَشْرَةَ وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ ٱلرُّومِ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِمْ. وَٱللِّهْبُ وَهُوَ ٱلْوَاقُوصَةُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَٱلْخَنْدَقُ مِنْ أَمَامِهِمْ. وَلَا يَخْرُجُونَ خَرْجَةً إِلَّا أُدِيلَ مِنْهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ. حَتَّى إِذَا سَلَخُوا شَهْرَ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ وَقَدِ

ٱسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ وَأَعْلَمُوهُ ٱلشَّأْنَ فِي صَفَرَ. فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ لِيَلْحَقَ بِهِمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَلِّفَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ ٱلْمُثَنَّى فَوَافَاهُمْ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَعَمْرٍو وَٱلْمُهَلَّبِ قَالُوا: وَلَمَّا نَزَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْيَرْمُوكَ وَٱسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ قَالَ خَالِدٌ أَقْوَى لَهَا. فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِٱلْعِرَاقِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ وَٱسْتَحَثَّهُ فِي ٱلسَّيْرِ فَنَفَذَ خَالِدٌ لِذَٰلِكَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ وَطَلَعَ بَاهَانُ عَلَى ٱلرُّومِ وَقَدْ قَدَّمَ قُدَّامَهُ ٱلشَّمَامِسَةَ وَٱلرُّهْبَانَ وَٱلْقِسِّيسِينَ يُغِيرُونَهُمْ وَيُحَضِّضُونَهُمْ عَلَى ٱلْقِتَالِ. وَوَافَقَ قُدُومُ خَالِدٍ قُدُومَ بَاهَانَ فَخَرَجَ بِهِمْ بَاهَانُ كَٱلْمُقْتَدِرِ فَوَلِيَ خَالِدٌ قِتَالَهُ وَقَاتَلَ ٱلْأُمَرَاءُ مَنْ بِإِزَائِهِمْ فَهُزِمَ بَاهَانُ وَتَتَابَعَ ٱلرُّومُ عَلَى ٱلْهَزِيمَةِ فَٱقْتَحَمُوا خَنْدَقَهُمْ. وَتَيَمَّنَتِ ٱلرُّومُ بِبَاهَانَ وَفَرِحَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِخَالِدٍ وَحَرِدَ ٱلْمُسْلِمُونَ وَحَرِدَ ٱلرُّومُ وَهُمْ أَرْبَعُونَ وَمِائَتَا أَلْفٍ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ أَلْفَ مُقَيَّدٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ مُسَلْسَلٍ لِلْمَوْتِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا مُرَبَّطُونَ بِٱلْعَمَائِمِ وَثَمَانُونَ أَلْفَ رَاجِلٍ وَٱلْمُسْلِمُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا مِمَّنْ كَانَ مُقِيمًا. إِلَى أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ فِي تِسْعَةِ آلَافٍ فَصَارُوا سِتَّةً وَثَلَٰثِينَ أَلْفًا. وَمَرِضَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي جُمَادَى ٱلْأُولَى وَتُوُفِّيَ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ قَبْلَ ٱلْفَتْحِ بِعَشْرِ لَيَالٍ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ سَمَّى لِكُلِّ أَمِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ ٱلشَّامِ كُورَةً. فَسَمَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ حِمْصَ.

وَلِيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ دِمَشْقَ. وَلِشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ ٱلْأُرْدُنَّ. وَلِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ وَلِعَلْقَمَةَ بْنِ مُحْصِنٍ فِلَسْطِينَ. فَلَمَّا فَرَغَا مِنْهَا نَزَلَ عَلْقَمَةُ وَسَارَ إِلَى مِصْرَ. فَلَمَّا شَارَفُوا ٱلشَّأْمَ دَهِمَ كُلَّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرٌ فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا بِمَكَانٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْقَوْا جَمْعَ ٱلرُّومِ بِجَمْعِ ٱلْمُسْلِمِينَ

مُرُورُ خَالِدٍ مِنَ ٱلْعِرَاقِ إِلَى ٱلشَّأْمِ

كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ وَهُوَ بِٱلْحِيرَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَمُدَّ أَهْلَ ٱلشَّأْمِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُوَّةِ وَيَخْرُجَ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى ضَعَفَةِ ٱلنَّاسِ رَجُلًا مِنْهُمْ. فَلَمَّا أَتَى خَالِدًا كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ بِذٰلِكَ قَالَ خَالِدٌ: هٰذَا عَمَلُ ٱلْأُعَيْسِرِ ٱبْنِ أُمِّ شَمْلَةَ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ حَسَدَنِي أَنْ يَكُونَ فَتْحُ ٱلْعِرَاقِ عَلَى يَدِي. فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ ٱلْقُوَّةِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَرَدَّ ٱلضُّعَفَاءَ وَٱلنِّسَاءَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرَ بْنَ سَعْدٍ ٱلْأَنْصَارِيَّ وَٱسْتَخْلَفَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِٱلْعِرَاقِ مِنْ رَبِيعَةَ وَغَيْرِهِمِ ٱلْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ ٱلشَّيْبَانِيَّ. ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَيْنِ ٱلتَّمْرِ فَأَغَارَ عَلَى أَهْلِهَا فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَرَابَطَ حِصْنًا بِهَا فِيهِ مُقَاتِلَةٌ كَانَ كِسْرَى وَضَعَهُمْ فِيهِ حَتَّى ٱسْتَنْزَلَهُمْ. فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ وَسَبَى مِنْ عَيْنِ ٱلتَّمْرِ وَمِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ ٱلْمُرَابِطَةِ سَبَايَا كَثِيرَةً فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ. فَكَانَ مِنْ تِلْكَ ٱلسَّبَايَا أَبُو عَمْرَةَ مَوْلَى شَبَّانَ وَهُوَ أَبُو عَبْدِ ٱلْأَعْلَى ٱبْنُ أَبِي عَمْرَةَ وَعُبَيْدَةُ مَوْلَى ٱلْمُعَلَّى مِنَ ٱلْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ وَأَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ

مَوْلَى زَهْرَةَ وَخَيْرٌ مَوْلَى أَبِي دَاوُدَ ٱلْأَنصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَازِنِ بْنِ ٱلنَّجَّارِ وَيَسَارٌ وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحٰقَ مَوْلَى قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ ٱلْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَحُ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ ٱلْأَنصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكِ بْنِ ٱلنَّجَّارِ وَحُمْرَانُ بْنُ أَبَانَ مَوْلَى عُثْمٰنَ بْنِ عَفَّانَ . وَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ هِلَالَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ بِشْرٍ ٱلنَّمِرِيَّ وَصَلَبَهُ بِعَيْنِ ٱلتَّمْرِ . ثُمَّ أَرَادَ ٱلسَّيْرَ مُفَوِّزًا مِنْ قُرَاقِرَ وَهُوَ مَاءٌ لِكَلْبٍ إِلَى سُوَى وَهُوَ مَاءٌ لِبَهْرَاءَ بَيْنَهُمَا خَمْسُ لَيَالٍ . فَلَمْ يَهْتَدِ خَالِدٌ ٱلطَّرِيقَ فَٱلْتَمَسَ دَلِيلًا فَدُلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ ٱلطَّائِيِّ فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : ٱنْطَلِقْ بِٱلنَّاسِ : فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ : إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذَلِكَ بِٱلْخَيْلِ وَٱلْأَثْقَالِ وَٱللّٰهِ إِنَّ ٱلرَّاكِبَ ٱلْمُفْرَدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغَرِّرًا . إِنَّهَا لَخَمْسُ لَيَالٍ جِيَادٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلَّتِهَا . فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : وَيْحَكَ إِنَّهُ وَٱللّٰهِ إِنْ لِي بُدٌّ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّهُ قَدْ أَتَتْنِي مِنَ ٱلْأَمِيرِ عَزْمَةٌ بِذٰلِكَ فَمُرْ بِأَمْرِكَ . قَالَ ٱسْتَكْثِرُوا مِنَ ٱلْمَاءِ . مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصُرَّ أُذُنَ نَاقَتِهِ عَلَى مَاءٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهَا ٱلْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ ٱللّٰهُ . وَٱبْغِنِي عِشْرِينَ جَزُورًا عِظَامًا سِمَانًا مَسَانَّ . فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ فَظَمَّأَهُنَّ حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ حَتَّى إِذَا تَمَلَّأَتْ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ فَقَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ ثُمَّ كَعَمَهُنَّ لِئَلَّا يَجْتَرِرْنَ . ثُمَّ أَخْلَى أَدْبَارَهُنَّ . ثُمَّ قَالَ لِخَالِدٍ سِرْ فَسَارَ خَالِدٌ مَعَهُ مُغِذًّا بِٱلْخُيُولِ وَٱلْأَثْقَالِ . فَكُلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا ٱفْتَظَّ أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ ٱلشَّوَارِفِ فَأَخَذَ

مَا فِي أَكْرَاشِهَا فَسَقَاهُ ٱلْخَيْلَ. ثُمَّ شَرِبَ ٱلنَّاسُ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنَ ٱلْمَاءِ. فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ ٱلْمَفَازَةِ قَالَ لِرَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ: وَيْحَكَ يَا رَافِعُ مَا عِنْدَكَ: قَالَ أَدْرَكْتَ ٱلرِّيَّ إِنْ شَاءَ ٱللهُ. فَلَمَّا دَنَا مِنَ ٱلْعَلَمَيْنِ قَالَ لِلنَّاسِ: ٱنْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ شُجَيْرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَقِعْدَةِ ٱلرَّجُلِ: فَقَالُوا مَا نَرَاهَا: فَقَالَ: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. هَلَكْتُمْ وَٱللهِ إِذًا وَهَلَكْتُ. ٱنْظُرُوا. فَطَلَبُوهَا فَوَجَدُوهَا قُطِعَتْ وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. فَلَمَّا رَآهَا ٱلْمُسْلِمُونَ كَبَّرُوا وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عَمِيرَةَ ثُمَّ قَالَ: ٱحْفِرُوا فِي أَصْلِهَا: فَحَفَرُوا فَٱسْتَخْرَجُوا عَيْنًا فَشَرِبُوا حَتَّى رَوِيَ ٱلنَّاسُ فَٱتَّصَلَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ لِخَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ ٱلْمَنَازِلُ فَقَالَ: وَٱللهِ مَا وَرَدْتُ هٰذَا ٱلْمَاءَ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَرَدْتُهُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ. فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

لِلهِ عَيْنَا رَافِعٍ أَنَّى ٱهْتَدَى ... فَوَّزَ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى
خِمْسًا إِذَا مَا سَارَهُ ٱلْجَيْشُ بَكَى ... مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِيٌّ يُرَى

فَلَمَّا ٱنْتَهَى خَالِدٌ إِلَى سُوَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ بَهْرَاءُ قَبْلَ ٱلصُّبْحِ وَنَاسٌ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ خَمْرًا لَهُمْ فِي جَفْنَةٍ قَدِ ٱجْتَمَعُوا عَلَيْهَا وَمُغَنِّيهِمْ يَقُولُ

أَلَا عَلِّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ ... لَعَلَّ مَنَايَانَا قَرِيبٌ وَمَا نَدْرِي
أَلَا عَلِّلَانِي بِٱلزُّجَاجِ وَكَرِّرَا ... عَلَيَّ كُمَيْتَ ٱللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
أَلَا عَلِّلَانِي مِنْ سُلَافَةِ قَهْوَةٍ ... تُسَلِّي هُمُومَ ٱلنَّفْسِ مِنْ جَيِّدِ ٱلْخَمْرِ

أَظُنُّ خُيُولَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا ... سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ ٱلصَّبَاحِ مِنَ ٱلْبِشْرِ
فَهَلْ لَكُمُ فِي ٱلسَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ ... وَقَبْلَ خُرُوجِ ٱلْمُعْصِرَاتِ مِنَ ٱلْخِدْرِ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ مُغَنِّيَهُمْ ذٰلِكَ قُتِلَ تَحْتَ ٱلْغَارَةِ فَسَالَ دَمُهُ فِي تِلْكَ ٱلْجَفْنَةِ. ثُمَّ سَارَ عَلَى وَجْهِهِ ذٰلِكَ حَتَّى أَغَارَ عَلَى غَسَّانَ بِمَرْجِ رَاهِطٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى قَنَاةِ بُصْرَى وَعَلَيْهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ ٱلْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ فَٱجْتَمَعُوا عَلَيْهَا فَرَابَطُوا حَتَّى صَالَحَتْ بُصْرَى عَلَى ٱلْجِزْيَةِ وَفَتَحَهَا ٱللهُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ ٱلشَّامِ فُتِحَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ

مَعْرَكَةُ أَجْنَادِينَ

ثُمَّ سَارُوا جَمِيعًا إِلَى فِلَسْطِينَ مَدَدًا لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ وَعَمْرٌو مُقِيمٌ بِٱلْعَرَبَاتِ مِنْ غَوْرِ فِلَسْطِينَ وَسَمِعَتِ ٱلرُّومُ بِهِمْ فَٱنْكَشَفُوا عَنْ جِلِّقَ إِلَى أَجْنَادِينَ وَعَلَيْهِمْ تَذَارِقُ أَخُو هِرَقْلَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. وَأَجْنَادِينُ بَلَدٌ بَيْنَ ٱلرَّمْلَةِ وَبَيْتِ جِبْرِينَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ. وَسَارَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ حِينَ سَمِعَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ وَيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى لَقِيَهُمْ فَٱجْتَمَعُوا بِأَجْنَادِينَ حَتَّى عَسْكَرُوا عَلَيْهِمْ.

حَدَّثَنَا ٱبْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحٰقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ يَعْنِي ٱبْنَ ٱلزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ:

كَانَ عَلَى ٱلرُّومِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ ٱلْقُبُقْلَارُ كَانَ هِرَقْلُ ٱسْتَخْلَفَهُمْ وَٱسْتَخْلَفَهُ عَلَى أَمْرِ ٱلشَّأْمِ حِينَ سَارَ إِلَى ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَإِلَيْهِ ٱنْصَرَفَ تَذَارِقُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلرُّومِ. فَأَمَّا عُلَمَاءُ ٱلشَّأْمِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى ٱلرُّومِ تَذَارِقُ وَٱللهُ أَعْلَمُ. حَدَّثَنَا ٱبْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنِ ٱبْنِ إِسْحٰقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: لَمَّا تَدَانَى ٱلْعَسْكَرَانِ بَعَثَ ٱلْقُبُقْلَارُ رَجُلًا عَرَبِيًّا فَقَالَ فَحُدِّثْتُ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ رَجُلٌ مِنْ قُضَاعَةَ مِنْ تَزِيدَ بْنِ حَيْدَانَ يُقَالُ لَهُ ٱبْنُ هَزَارِقَ فَقَالَ: ٱدْخُلْ فِي هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ وَأَقِمْ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ ٱئْتِنِي بِخَبَرِهِمْ. قَالَ فَدَخَلَ فِي ٱلنَّاسِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ لَا يُنْكَرُ وَأَقَامَ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ. قَالَ: بِٱللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِٱلنَّهَارِ فُرْسَانٌ وَلَوْ سَرَقَ ٱبْنُ مَلِكِهِمْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَلَوْ زَنَى رُجِمَ لِإِقَامَةِ ٱلْحَقِّ فِيهِمْ. قَالَ ٱلْقُبُقْلَارُ: لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي لَبَطْنُ ٱلْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ لِقَاءِ هٰؤُلَاءِ عَلَى ظُهُورِهَا وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنَ ٱللهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلَا يَنْصُرَنِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَنْصُرَهُمْ عَلَيَّ. قَالَ: ثُمَّ تَزَاحَفَ ٱلنَّاسُ فَٱقْتَتَلُوا. فَلَمَّا رَأَى ٱلْقُبُقْلَارُ مَا رَأَى مِنْ قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلرُّومِ لُفُّوا رَأْسِي بِثَوْبٍ. قَالُوا لَهُ لِمَ. قَالَ يَوْمُ ٱلْبُؤْسِ لَا أُحِبُّ أَنْ أَرَاهُ فَمَا رَأَيْتُ فِي ٱلدُّنْيَا أَشَدَّ مِنْ هٰذَا ٱلْيَوْمِ. قَالَ: فَٱحْتَزَّ ٱلْمُسْلِمُونَ رَأْسَهُ وَإِنَّهُ لَمُلَفَّفٌ. وَكَانَتْ وَقْعَةُ أَجْنَادِينَ فِي سَنَةِ ثَلٰثَ عَشْرَةَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ جُمَادَى ٱلْأُولَى وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ سَلَمَةُ بْنُ هِشَامِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ وَهَبَّارُ بْنُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْأَسَدِ وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلنَّحَّامُ وَهِشَامُ بْنُ ٱلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَجَمَاعَةٌ أُخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ. قَالَ: وَلَمْ يُسَمَّ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْأَنْصَارِ أَحَدًا أُصِيبَ بِهَا. وَفِيهَا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ لِثَمَانِ لَيَالٍ بَقِينَ أَوْ سَبْعٍ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ

فِي ٱفْتِتَاحِ دِمَشْقَ

رَجَعَ ٱلْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ سَيْفٍ عَنْ أَبِي عُثْمٰنَ عَنْ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَادَةَ قَالَا: وَلَمَّا جَاءَ عُمَرَ ٱلْكِتَابُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بِٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْدَأَ بِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ. أَمَّا بَعْدُ فَٱبْدَؤُوا بِدِمَشْقَ وَٱنْهَدُوا فَإِنَّهَا حِصْنُ ٱلشَّأْمِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ وَٱشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلٍ بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ. وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمْصَ. فَإِنْ فَتَحَهَا ٱللهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَاكَ ٱلَّذِي نُحِبُّ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ ٱللهُ دِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا وَدَعُوهَا وَٱنْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ ٱلْأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلٍ. فَإِنْ فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ فَٱنْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرًا وَخَلِّهِمَا بِٱلْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ. وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى ٱلنَّاسِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ إِمَارَتِهِمْ. فَسَرَّحَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى فِحْلٍ أَحَدَ عَشَرَ قُوَّادًا أَبَا ٱلْأَعْوَرِ ٱلسُّلَمِيَّ وَعَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَامِرٍ ٱلْحَرَشِيَّ وَعَامِرَ بْنَ حَثْمَةَ وَعَمْرَو بْنَ كُلَيْبٍ مِنْ يَحْصُبَ وَعُمَارَةَ بْنَ ٱلصَّعِقِ بْنِ كَعْبٍ وَصَيْفِيَّ بْنَ عُلْبَةَ بْنِ شَامِلٍ. وَعَمْرَو بْنَ فُلَانٍ

وَٱلْحَبِيبَ بْنَ عَمْرٍو وَوُلَيْدَةَ بْنَ عَامِرِ بْنِ خَثْعَمَةَ وَبِشْرَ بْنَ عِصْمَةَ وَعُمَارَةَ بْنَ مَخْشِيٍّ قَائِدَ ٱلنَّاسِ. وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ قُوَّادٌ وَكَانَتِ ٱلرُّؤَسَاءُ تَكُونُ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ حَتَّى لَا يَجِدُوا مَنْ يَحْتَمِلُ ذٰلِكَ. فَسَارُوا مِنَ ٱلصُّفَّرِ حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ فِحْلٍ. فَلَمَّا رَأَتِ ٱلرُّومُ أَنَّ ٱلْجُنُودَ تُرِيدُهُمْ بَثَقُوا ٱلْمِيَاهَ حَوْلَ فِحْلٍ فَأَرْدَغَتِ ٱلْأَرْضُ ثُمَّ وَحِلَتْ وَٱغْتَمَّ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ ذٰلِكَ فَحَبَسُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِهَا ثَلٰثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَحْصُورٍ بِٱلشَّأْمِ أَهْلُ فِحْلٍ ثُمَّ أَهْلُ دِمَشْقَ

وَبَعَثُوا ٱلْأُمَرَاءَ وَبَعَثَ أَبُو عُبَيْدَةَ ذَا ٱلْكَلَاعِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ رِدْءًا. وَبَعَثَ عَلْقَمَةَ بْنَ حَكِيمٍ وَمَسْرُوقًا وَكَانَا بَيْنَ دِمَشْقَ وَفِلَسْطِينَ وَٱلْأَمِيرُ يَزِيدُ فَفَصَلَ وَفَصَلَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ مِنَ ٱلْمَرْجِ وَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَعَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ عَمْرٌو وَأَبُو عُبَيْدَةَ. وَعَلَى ٱلْخَيْلِ عِيَاضٌ وَعَلَى ٱلرَّجْلِ شُرَحْبِيلُ. فَقَدِمُوا عَلَى دِمَشْقَ وَعَلَيْهِمْ نَسْطَاسُ بْنُ نِسْطُوسَ فَحَصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ وَنَزَلُوا حَوَالَيْهَا. فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى نَاحِيَةٍ وَعَمْرٌو عَلَى نَاحِيَةٍ وَيَزِيدُ عَلَى نَاحِيَةٍ وَهِرَقْلُ يَوْمَئِذٍ بِحِمْصَ وَمَدِينَةُ حِمْصَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. فَحَاصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ لَيْلَةً حِصَارًا شَدِيدًا بِٱلزُّحُوفِ وَٱلتَّرَامِي وَٱلْمَجَانِيقِ وَهُمْ مُعْتَصِمُونَ بِٱلْمَدِينَةِ يَرْجُونَ ٱلْغِيَاثَ وَهِرَقْلُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ. وَقَدِ ٱسْتَمَدُّوهُ وَذُو ٱلْكَلَاعِ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ حِمْصَ عَلَى رَأْسِ لَيْلَةٍ مِنْ دِمَشْقَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ حِمْصَ وَجَاءَتْ خُيُولُ هِرَقْلَ مُغِيثَةً لِأَهْلِ

دِمَشْقَ فَأَشْجَتْهَا ٱلْخُيُولُ ٱلَّتِي مَعَ ذِي ٱلْكُلَاعِ وَشَغَلَتْهَا عَنِ ٱلنَّاسِ.
فَأَرَزُوا وَنَزَلُوا بِإِزَائِهِ وَأَهْلُ دِمَشْقَ عَلَى حَالِهِمْ. فَلَمَّا أَيْقَنَ أَهْلُ
دِمَشْقَ أَنَّ ٱلْإِمْدَادَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ فَشِلُوا وَوَهَنُوا وَأَبْلَسُوا وَٱزْدَادَ
ٱلْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا. وَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا كَٱلْغَارَاتِ قَبْلَ ذٰلِكَ
إِذَا هَجَمَ ٱلْبَرْدُ قَفَلَ ٱلنَّاسُ فَسَقَطَ ٱلنَّجْمُ وَٱلْقَوْمُ مُقِيمُونَ

فَعِنْدَ ذٰلِكَ ٱنْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَنَدِمُوا عَلَى دُخُولِ دِمَشْقَ وَوُلِدَ
لِلْبِطْرِيقِ ٱلَّذِي عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ مَوْلُودٌ فَصَنَعَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ ٱلْقَوْمُ
وَشَرِبُوا وَعَدَلُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِذٰلِكَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَالِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ
مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. عُيُونُهُ ذَاكِيَةٌ وَهُوَ مَعْنِيٌّ بِمَا يَلِيهِ. قَدِ ٱتَّخَذَ
حِبَالًا كَهَيْئَةِ ٱلسَّلَالِيمِ وَأَوْهَاقًا. فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ نَهَضَ
وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ ٱلَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَهُمْ هُوَ وَٱلْقَعْقَاعُ
بْنُ عَمْرٍو وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ
وَقَالُوا: إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا عَلَى ٱلسُّورِ فَٱرْقَوْا إِلَيْنَا وَٱنْهَدُوا إِلَى ٱلْبَابِ:
فَلَمَّا ٱنْتَهَى إِلَى ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَلِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ رَمَوْا
بِٱلْحِبَالِ ٱلشُّرَفَ وَعَلَى ظُهُورِهِمِ ٱلْقِرَبُ ٱلَّتِي قَطَعُوا بِهَا خَنْدَقَهُمْ.
فَلَمَّا ثَبَتَ لَهُمْ وَهَقَانِ تَسَلَّقَ فِيهِمَا ٱلْقَعْقَاعُ وَمَذْعُورٌ. ثُمَّ لَمْ يَدَعَا
أُحْبُولَةً إِلَّا أَثْبَتَاهَا وَٱلْأَوْهَاقَ بِٱلشُّرَفِ. وَكَانَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي ٱقْتَحَمُوا
مِنْهُ أَحْصَنَ مَكَانٍ يُحِيطُ بِدِمَشْقَ أَكْثَرَهُ مَاءً وَأَشَدَّهُ مَدْخَلًا وَتَوَافَوْا

لِذٰلِكَ فَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ دَخَلَ مَعَهُ إِلَّا رَقِيَ أَوْ دَنَا مِنَ الْبَابِ حَتَّى إِذَا اسْتَوَوْا عَلَى السُّورِ حَدَّرَ عَامَّةَ أَصْحَابِهِ وَانْحَدَرَ مَعَهُمْ وَخَلَّفَ مَنْ يَحْمِي ذٰلِكَ الْمَكَانَ لِمَنْ يَرْتَقِي . وَأَمَرَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ فَكَبَّرَ الَّذِينَ عَلَى رَأْسِ السُّورِ . فَنَهَدَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْبَابِ وَمَالَ إِلَى الْحِبَالِ بَشَرٌ كَثِيرٌ فَوَثَبُوا فِيهَا وَانْتَهَى خَالِدٌ إِلَى مَنْ يَلِيهِ فَأَنَامَهُمْ وَانْحَدَرَ إِلَى الْبَابِ فَقَتَلُوا الْبَوَّابِينَ وَثَارَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَفَزِعَ سَائِرُ النَّاسِ . فَأَخَذُوا مَوَاقِفَهُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا الشَّأْنُ وَتَشَاغَلَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِمَا يَلِيهِمْ . وَقَطَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ أَغْلَاقَ الْبَابِ بِالسُّيُوفِ وَفَتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلٍ حَتَّى مَا بَقِيَ مِمَّا يَلِي بَابَ خَالِدٍ مُقَاتِلٌ إِلَّا أُنِيمَ

وَلَمَّا شَدَّ خَالِدٌ عَلَى مَنْ يَلِيهِ وَبَلَغَ مِنْهُمُ الَّذِي أَرَادَ عَنْوَةً وَأَرَزَ مَنْ أَفْلَتَ إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي تَلِي غَيْرَهُ . وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ دَعَوْهُمْ إِلَى الْمُنَاظَرَةِ فَأَبَوْا وَأَبْعَدُوا فَلَمْ تَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَهُمْ يَبُوحُونَ لَهُمْ بِالصُّلْحِ . فَأَجَابُوهُمْ وَقَبِلُوا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا لَهُمُ الْأَبْوَابَ وَقَالُوا : ادْخُلُوا فَامْنَعُونَا مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ الْبَابِ : وَدَخَلَ أَهْلُ كُلِّ بَابٍ بِصُلْحٍ مَنْ يَلِيهِمْ وَدَخَلَ خَالِدٌ مِمَّا يَلِيهِ عَنْوَةً . فَالْتَقَى خَالِدٌ وَالْقُوَّادُ فِي وَسَطِهَا هٰذَا اسْتِعْرَاضًا وَانْتِهَابًا وَهٰذَا صُلْحًا وَتَسْكِينًا فَأَجْرَوْا نَاحِيَةَ خَالِدٍ مَجْرَى الصُّلْحِ . فَصَارَ صُلْحٌ وَكَانَ صُلْحُ دِمَشْقَ عَلَى مُقَاسَمَةِ الدِّينَارِ وَالْعَقَارِ وَدِينَارٍ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ . فَاقْتَسَمُوا الْأَسْلَابَ فَكَانَ أَصْحَابُ

خَالِدٍ فِيهَا كَأَصْحَابِ سَائِرِ ٱلْقُوَّادِ وَجَرَى عَلَى ٱلدِّيَارِ مَنْ بَقِيَ فِي ٱلصُّلْحِ جَرِيبٌ مِنْ كُلِّ جَرِيبِ أَرْضٍ وَوَقَفَ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ وَمَنْ صَوَّبَ مَعَهُمْ فَيْئًا وَقَسَمُوا لِذِي ٱلْكَلَاعِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِأَبِي ٱلْأَعْوَرِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِبَشِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ وَبَعَثُوا بِٱلْبِشَارَةِ إِلَى عُمَرَ

فِي ٱفْتِتَاحِ بِلَادِ فَارِسَ

وَقْعَةُ ٱلْقَرْقَسِ

وَقْعَةُ ٱلْقَرْقَسِ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْقُسُّ قُسُّ ٱلنَّاطِقِ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْجِسْرُ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْمَرْوَحَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلطَّبَرِيُّ رَحْمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَلَمَّا رَجَعَ ٱلْجَالِنُوسُ إِلَى رُسْتَمَ وَمَنْ أَفْلَتَ مِنْ جُنُودِهِ قَالَ رُسْتَمُ: أَيُّ ٱلْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى ٱلْعَرَبِ فِيمَا تَرَوْنَ: قَالُوا: بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ. فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيلُهُ وَرَدَّ ٱلْجَالِنُوسَ مَعَهُ: فَقَالَ لَهُ: قَدِّمِ ٱلْجَالِنُوسَ فَإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا فَٱضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَقْبَلَ بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ وَمَعَهُ دِرَفْسُ كَابِيَانَ رَايَةُ كِسْرَى وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ ٱلنُّمُرِ عَرْضَ ثَمَانِي أَذْرُعٍ فِي طُولِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى نَزَلَ ٱلْمَرْوَحَةَ مَعَ ٱلْبُرُوجِ وَٱلْعَاقُولِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ. إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَنَدَعَكُمْ وَٱلْعُبُورَ. وَإِمَّا أَنْ تَدَعُونَا نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ: فَقَالَ ٱلنَّاسُ: لَا تَعْبُرْ يَا أَبَا عُبَيْدٍ إِنَّا نَنْهَاكَ عَنِ ٱلْعُبُورِ. قَالُوا لَهُ: قُلْ لَهُمْ فَلْيَعْبُرُوا وَكَانَ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ سَلِيطٌ. فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ

وَقَالَ: لَا يَكُونُوا أَجْرَأَ عَلَى ٱلْمَوْتِ مِنَّا بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْهِمْ. فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ فِي مَنْزِلٍ ضَيِّقِ ٱلْمَطْرَدِ وَٱلْمَذْهَبِ فَٱقْتَتَلُوا يَوْمًا وَأَبُو عُبَيْدٍ فِيمَا بَيْنَ ٱلسِّتَّةِ وَٱلْعَشَرَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ ٱلنَّهَارِ وَٱسْتَبْطَأَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ ٱلْفَتْحَ وَأَلَّفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فَتَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ

فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ وَعَضَلَتِ ٱلْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَأَلْحَمَ ٱلنَّاسُ ٱلْحَرْبَ. فَلَمَّا نَظَرَتِ ٱلْخُيُولُ إِلَى ٱلْفِيَلَةِ عَلَيْهَا ٱلنُّجُلُ وَٱلْخَيْلِ عَلَيْهَا ٱلتَّجَافِيفُ وَٱلْفُرْسَانِ عَلَيْهِمِ ٱلشَّعْرُ رَأَتْ شَيْئًا مُنْكَرًا لَمْ تَكُنْ تَرَى مِثْلَهُ. فَجَعَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِذَا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ تُقْدِمْ خُيُولُهُمْ. فَإِذَا حَمَلُوا عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْفِيَلَةِ وَٱلْجَلَاجِلِ فَرَّقَتْ بَيْنَ كَرَادِيسِهِمْ لَا تَقُومُ لَهَا ٱلْخَيْلُ إِلَّا عَلَى نِفَارٍ وَخَزَّقَهُمُ ٱلْفُرْسُ بِٱلنُّشَّابِ وَعَضَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْأَلَمُ وَجَعَلُوا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ. فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَجَّلَ ٱلنَّاسُ. ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ فَصَافَحُوهُمْ بِٱلسُّيُوفِ. فَجَعَلَتِ ٱلْفِيَلَةُ لَا تَحْمِلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعَتْهُمْ. فَنَادَى أَبُو عُبَيْدٍ: ٱحْتَرِشُوا ٱلْفِيَلَةَ وَقَطِّعُوا بُطُنَهَا وَٱقْلِبُوا عَنْهَا أَهْلَهَا: وَوَاثَبَ هُوَ ٱلْفِيلَ ٱلْأَبْيَضَ. فَتَعَلَّقَ بِبِطَانِهِ فَقَطَعَهُ وَقَطَعَ ٱلَّذِينَ عَلَيْهِ وَفَعَلَ ٱلْقَوْمُ مِثْلَ ذٰلِكَ فَمَا تَرَكُوا فِيلًا إِلَّا حَطُّوا أَهْلَهُ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ فَأَهْوَى ٱلْفِيلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَنَفَحَ مِشْفَرَهُ بِٱلسَّيْفِ فَٱتَّقَاهُ ٱلْفِيلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَخَبَطَهُ ٱلْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ ٱلنَّاسُ تَحْتَ ٱلْفِيلِ خَشَعَتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَخَذَ ٱللِّوَاءَ ٱلَّذِي كَانَ أَمَّرَهُ بَعْدَهُ فَقَاتَلَ ٱلْفِيلَ حَتَّى تَنَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ فَٱجْتَرَّهُ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَزُوا

وَشَلْوهُ وَنَحِرَ ثُمَّ ٱلْفِيلُ بِيَدِهِ ذَاتَ أَبِي عُبَيْدٍ وَخَبَطَهُ ٱلْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ وَتَتَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ ٱللِّوَاءَ وَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ. ثُمَّ أَخَذَ ٱللِّوَاءَ ٱلْمُثَنَّى وَهَرَبَ ٱلنَّاسُ

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَرْثَدٍ ٱلثَّقَفِيُّ مَا لَقِيَ أَبُو عُبَيْدٍ وَخُلَفَاؤُهُ وَلِمَا يَصْنَعُ ٱلنَّاسُ بَادَرَهُمُ ٱلْجِسْرَ فَقَطَعَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أُمَرَاؤُكُمْ أَوْ تَظْفَرُوا وَأَجَارَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْجِسْرِ وَجَشِعَ نَاسٌ فَتَوَاثَبُوا فِي ٱلْفُرَاتِ فَغَرِقَ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ وَأَسْرَعُوا فِيمَنْ صَبَرَ وَحَمَى ٱلْمُثَنَّى وَفُرْسَانٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلنَّاسَ وَنَادَى: يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا دُونَكُمْ فَٱعْبُرُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ وَلَا تَدْهَشُوا فَإِنَّا لَنْ نُزَايِلَ حَتَّى نَرَاكُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وَلَا تُغَرِّقُوا أَنْفُسَكُمْ: فَوَجَدُوا ٱلْجِسْرَ وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَرْثَدٍ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَمْنَعُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعُبُورِ. فَأَتَوْا بِهِ ٱلْمُثَنَّى فَضَرَبَهُ وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى ٱلَّذِي صَنَعْتَ: قَالَ لِيُقَاتِلُوا. وَنَادَى مَنْ عَبَرَ. فَجَاؤُوا بِعُلُوجٍ فَضَمُّوا إِلَى ٱلسَّفِينَةِ ٱلَّتِي قَطَعُوا سَفَائِنَهَا وَعَبَرَ ٱلنَّاسُ. وَكَانَ آخِرُ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ ٱلْجِسْرِ سَلِيطَ بْنَ قَيْسٍ وَعَبَرَ ٱلْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ فَٱضْطَرَبَ عَسْكَرُهُ وَرَامَهُمْ ذُو ٱلْحَاجِبِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا عَبَرَ ٱلْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ ٱرْفَضَّ عَنْهُ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَبَقِيَ ٱلْمُثَنَّى فِي قِلَّةٍ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عُثْمٰنَ ٱلنَّهْدِيِّ قَالَ: هَلَكَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَهَرَبَ أَلْفَانِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ

وَقْعَةُ ٱلْبُوَيْبِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَبَعَثَ ٱلْمُثَنَّى بَعْدَ ٱلْجِسْرِ فِيمَنْ يَلِيهِ مِنَ ٱلْمُمِدِّينَ فَتَوَافَوْا إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، وَبَلَغَ رُسْتَمَ وَٱلْفَيرُزَانَ ذٰلِكَ وَأَتَتْهُمُ ٱلْعُيُونُ بِهِ وَبِمَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ ٱلْإِمْدَادِ وَٱجْتَمَعَا عَلَى أَنْ يَبْعَثَا مِهْرَانَ ٱلْهَمَذَانِيَّ حَتَّى يُرِيَا مِنْ رَأْيِهِمَا. فَخَرَجَ مِهْرَانُ فِي ٱلْخُيُولِ وَأَمَرَاهُ بِٱلْحِيرَةِ وَبَلَغَ ٱلْمُثَنَّى ٱلْخَبَرُ وَهُوَ مُعَسْكِرٌ بِمَرْجِ ٱلسِّبَاخِ بَيْنَ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَخَفَّانَ فِي ٱلَّذِينَ أَمَدُّوهُ مِنَ ٱلْعَرَبِ عَنْ خَبَرِ بَشِيرٍ وَكِنَانَةَ وَبَشِيرٌ يَوْمَئِذٍ بِٱلْحِيرَةِ. فَٱسْتَبْطَنَ فُرَاتَ بَادَقْلَى وَأَرْسَلَ إِلَى جَرِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ إِنَّا جَاءَنَا أَمْرٌ لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَهُ ٱلْقِيَامَ حَتَّى تَقْدَمُوا عَلَيْنَا فَعَجِّلُوا ٱللَّحَاقَ بِنَا وَمَوْعِدُكُمُ ٱلْبُوَيْبُ وَكَانَ جَرِيرٌ مُمِدًّا لَهُ. وَكَتَبَ إِلَى عِصْمَةَ وَمَنْ مَعَهُ وَكَانَ مُمِدًّا لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَإِلَى كُلِّ قَائِدٍ أَظَلَّهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَخُذُوا عَلَى ٱلْجَوْفِ. فَسَلَكُوا عَلَى ٱلْقَادِسِيَّةِ وَٱلْجَوْفِ وَمَنْ سَلَكَ مَعَهُ طَرِيقَهُ فَٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْمُثَنَّى وَهُوَ عَلَى ٱلْبُوَيْبِ مِمَّا يَلِي مَوْضِعَ ٱلْكُوفَةِ ٱلْيَوْمَ وَعَلَيْهِمِ ٱلْمُثَنَّى وَهُوَ بِإِزَاءِ مِهْرَانَ وَعَسْكَرِهِ. فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّوَادِ. مَا يُقَالُ لِلرُّقْعَةِ ٱلَّتِي فِيهَا مِهْرَانُ وَعَسْكَرُهُ: قَالَ بُسُوسِيَا. فَقَالَ أَكْدَى مِهْرَانُ وَهَلَكَ عَسْكَرُهُ نَزَلَ مَنْزِلًا هُوَ ٱلسُّوسُ. وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى كَاتَبَهُ مِهْرَانُ إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا

أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ . فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى : ٱعْبُرُوا فَعَبَرَ مِهْرَانُ فَنَزَلَ عَلَى شَاطِئِ ٱلْفُرَاتِ مَعَهُمْ فِي ٱلْمِلْطَاطِ . فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى : كَذَٰلِكَ لِلرَّجُلِ . مَا يُقَالُ لِهَٰذِهِ ٱلرُّقْعَةِ ٱلَّتِي نَزَلَهَا مِهْرَانُ وَأَصْحَابُهُ وَعَسْكَرُهُ قَالَ شُومِيَا . وَذَٰلِكَ فِي رَمَضَانَ . فَنَادَى فِي ٱلنَّاسِ ٱنْهَدُوا لِعَدُوِّكُمْ . فَتَنَاهَدُوا وَقَدْ كَانَ ٱلْمُثَنَّى عَبَّى ٱلْجَيْشَ . فَجَعَلَ عَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ مَذْعُورًا وَٱلنُّسَيْرَ وَعَلَى ٱلْمُجَرَّدَةِ عَاصِمًا وَعَلَى ٱلطَّلَائِعِ عِصْمَةَ وَٱصْطَفَّ ٱلْفَرِيقَانِ وَقَامَ ٱلْمُثَنَّى فِيهِمْ خَطِيبًا فَقَالَ : إِنَّكُمْ صُوَّامٌ وَٱلصَّوْمُ مَرَقَّةٌ وَمَضْعَفَةٌ وَإِنِّي أَرَى مِنَ ٱلرَّأْيِ أَنْ تُفْطِرُوا . ثُمَّ تَقَوَّوْا بِٱلطَّعَامِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ : قَالُوا نَعَمْ : فَأَفْطَرُوا فَأَبْصَرَ رَجُلًا يَسْتَوْفِزُ وَيَسْتَنْتِلُ مِنَ ٱلصَّفِّ فَقَالَ : مَا بَالُ هَٰذَا : فَقَالُوا مِمَّنْ فَرَّ مِنَ ٱلزَّحْفِ يَوْمَ ٱلْجِسْرِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَقْتِلَ فَقَرَعَهُ بِٱلرُّمْحِ وَقَالَ : لَا أَبَا لَكَ ٱلْزَمْ مَوْقِفَكَ فَإِذَا أَتَاكَ قِرْنُكَ فَأَغْنِهِ عَنْ صَاحِبِكَ وَلَا تَسْتَقْتِلْ . قَالَ : إِنِّي بِذَٰلِكَ لَجَدِيرٌ فَٱسْتَقَرَّ وَلَزِمَ ٱلصَّفَّ .

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي إِسْحٰقَ ٱلشَّيْبَانِيِّ مِثْلَهُ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ مِحْصَنٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ ٱلْعَجَمَ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي ٱلْعُبُورِ نَزَلُوا شُومِيَا مَوْضِعَ دَارِ ٱلرِّزْقِ . فَتَعَبَّوْا لَمَّا جَاؤُوا هُنَالِكَ . فَأَقْبَلُوا عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فِي صُفُوفٍ ثَلٰثَةٍ مَعَ كُلِّ صَفٍّ فِيلٌ وَرَجْلُهُمْ أَمَامَ فِيلِهِمْ وَجَاؤُوا لَهُمْ زَجَلٌ . فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى لِلْمُسْلِمِينَ : ٱلَّذِي تَسْمَعُونَ فَشَلٌ فَٱلْزَمُوا ٱلصَّمْتَ وَٱئْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ هَمْسًا . فَدَنَوْا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَجَاؤُوهُمْ مِنْ قِبَلِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ نَحْوَ

مَوْضِعِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ ٱلْيَوْمَ. فَلَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا وَصَفُّ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ ٱلْيَوْمَ وَمَا وَرَاءَهُ

• كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ قَالَا: وَكَانَ عَلَى مُجَنِّبَتَيِ ٱلْمُثَنَّى بَشِيرٌ وَبِشْرُ بْنُ أَبِي رُهْمٍ، وَعَلَى مُجَرِّدَتِهِ ٱلْمُعَنَّى وَعَلَى ٱلرَّجْلِ مَسْعُودٌ وَعَلَى ٱلطَّلَائِعِ قَبْلَ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ٱلنُّسَيْرُ وَعَلَى ٱلرِّدْءِ مَذْعُورٌ وَكَانَ عَلَى مُجَنِّبَتَيْ مِهْرَانَ ٱبْنُ ٱلْآزَاذْبِهِ مَرْزُبَانُ ٱلْحِيرَةِ وَمَرْدَانْشَاهُ. وَلَمَّا خَرَجَ ٱلْمُثَنَّى طَافَ فِي صُفُوفِهِ يَعْهَدُ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ ٱلشَّمُوسِ وَكَانَ يُدْعَى ٱلشَّمُوسَ مِنْ لِينِ عَرِيكَتِهِ وَلِطَهَارَتِهِ. فَكَانَ إِذَا رَكِبَهُ قَاتَلَ وَكَانَ لَا يَرْكَبُهُ إِلَّا لِقِتَالٍ يُوَدِّعُهُ مَا لَمْ يَكُنْ قِتَالٌ. فَوَقَفَ عَلَى ٱلرَّايَاتِ رَايَةً رَايَةً يُحَضِّضُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِأَمْرِهِ وَيَهُزُّهُمْ بِمَا فِيهِمْ تَحْضِيضًا لَهُمْ وَلِكُلِّهِمْ يَقُولُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تُؤْتَى ٱلْعَرَبُ مِنْ قِبَلِكُمُ ٱلْيَوْمَ. وَٱللهِ مَا يَسُرُّنِي ٱلْيَوْمَ لِنَفْسِي شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ يَسُرُّنِي لِعَامَّتِكُمْ. فَيُجِيبُونَهُ بِمِثْلِ ذَٰلِكَ. وَأَنْصَفَهُمُ ٱلْمُثَنَّى فِي ٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ وَخَلَطَ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَكْرُوهِ وَٱلْمَحْبُوبِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعِيبَ لَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا فَتَهَيَّؤُوا ثُمَّ ٱحْمِلُوا مَعَ ٱلرَّابِعَةِ: فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرَةٍ رَكَدَتْ خَيْلُهُمْ وَحَرْبُهُمْ مَلِيًّا. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمُثَنَّى خَلَلًا فِي بَعْضِ صُفُوفِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا وَقَالَ: إِنَّ ٱلْأَمِيرَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ وَيَقُولُ: لَا تَفْضَحُوا ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْيَوْمَ: فَقَالُوا نَعَمْ: وَٱعْتَدَلُوا وَجَعَلُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ يَرَوْنَهُ وَهُوَ يَمُدُّ لِحْيَتَهُ

لِمَا يَرَى مِنْهُمْ فَاعْتَبَوْا بِأَمْرٍ لَمْ يَجِئْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَرَمَقُوهُ فَرَأَوْهُ يَضْحَكُ فَرَحًا وَالْقَوْمُ بَيْنَ عِجْلٍ وَمَا وَرَاءَهَا

فَلَمَّا طَالَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ عَمَدَ الْمُثَنَّى إِلَى أَنَسِ بْنِ هِلَالٍ فَقَالَ: يَا أَنَسُ إِنَّكَ امْرُؤٌ عَرَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ تَكُ عَلَى دِينِنَا. فَإِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ حَمَلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَاحْمِلْ مَعِي: وَقَالَ لِابْنِ ذِي السَّهْمَيْنِ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ. فَحَمَلَ الْمُثَنَّى عَلَى مِهْرَانَ فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مَيْمَنَتِهِ. ثُمَّ خَالَطُوهُمْ فَاجْتَمَعَ الْقَلْبَانِ وَارْتَفَعَ الْغُبَارُ وَالْمُجَنِّبَاتُ تَقْتَتِلُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْرُغُوا لِنَصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا الْمُشْرِكُونَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ. وَارْتُثَّ مَسْعُودٌ يَوْمَئِذٍ وَقُوَّادٌ مِنْ قُوَّادِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانَ قَالَ لَهُمْ: إِذَا رَأَيْتُمُونَا أُصِبْنَا فَلَا تَدَعُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَحَدَ الْجَيْشَيْنِ يَنْكَشِفُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَأَغْنُوا غَنَاءَ مَنْ يَلِيكُمْ: وَأَوْجَعَ قَلْبُ الْمُسْلِمِينَ فِي قَلْبِ الْمُشْرِكِينَ وَقَتَلَ غُلَامٌ مِنَ التَّغْلِبِيِّينَ نَصْرَانِيٌّ مِهْرَانَ فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ. فَجَعَلَ الْمُثَنَّى سَلَبَهُ لِصَاحِبِ خَيْلِهِ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُشْرِكُ فِي خَيْلِ رَجُلٍ فَقَتَلَ وَسَلَبَ فَهُوَ الَّذِي هُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ وَكَانَ لَهُمْ قَائِدَانِ أَحَدُهُمَا جَرِيرٌ وَالْآخَرُ ابْنُ الْهَوْبَرِ فَاقْتَسَمَا

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَفِّزِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ: جَلَبَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ أَفْرَاسًا. فَلَمَّا الْتَقَى الزَّحْفَانِ يَوْمَ الْبُوَيْبِ قَالُوا: لَا نُقَاتِلُ الْعَرَبَ مَعَ الْعَجَمِ فَأَصَابَ أَحَدُهُمْ مِهْرَانَ يَوْمَئِذٍ وَمَهَدَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ وَرْدٍ مُحَفَّفٍ بِتَجْفَافٍ أَصْفَرَ

بَيْنَ عَيْنَيْهِ هِلَالٌ وَعَلَى ذَنَبِهِ أَهِلَّـةٌ فَٱسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ ٱنْتَمَى فَقَالَ: أَنَا ٱلْغُلَامُ ٱلتَّغْلِبِيُّ أَنَا قَتَلْتُ ٱلْمَرْزُبَانَ: فَأَتَاهُ جَرِيرٌ وَٱبْنُ ٱلْهَوْبَرِ فِي قَوْمِهِمَا فَأَخَذَا بِرِجْلِهِ فَأَنْزَلَاهُ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمَرْزُبَانِ أَنَّ جَرِيرًا وَٱلْمُنْذِرَ ٱشْتَرَكَا فِيهِ فَٱخْتَصَمَا فِي سِلَاحِهِ فَتَقَاضَيَا إِلَى ٱلْمُثَنَّى. فَجَعَلَ سِلَاحَهُ بَيْنَهُمَا وَٱلْمِنْطَقَةَ وَٱلسِّوَارَيْنِ بَيْنَهُمَا وَأَفْنَوْا قَلْبَ ٱلْمُشْرِكِينَ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ: وَٱللهِ إِنْ كُنَّا لَنَأْتِي ٱلْبُوَيْبَ فَنَرَى فِيمَا بَيْنَ مَوْضِعِ ٱلسُّكُونِ وَبَنِي سُلَيْمٍ عِظَامًا بِيضًا تَلُوحُ مِنْ هَامِهِمْ وَأَوْصَالِهِمْ يُعْتَبَرُ بِهَا. قَالَ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ شَهِدَهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْزُرُونَهَا بِمِائَةِ أَلْفِ قَتِيلٍ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَمَا عُفِّيَ عَلَيْهَا حَتَّى دَفَنَهَا أَدْفَانُ ٱلْبُيُوتِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ ٱلْحَرِثِ قَالَ: لَمَّا أَهْلَكَ ٱللهُ مِهْرَانَ ٱسْتَمْكَنَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنَ ٱلْغَارَةِ عَلَى ٱلسَّوَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِجْلَةَ فَمَخَرُوهَا لَا يَخَافُونَ كَيْدًا وَلَا يَلْقَوْنَ فِيهِ مَانِعًا. وَٱنْتَقَضَتْ مَسَالِحُ ٱلْعَجَمِ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ وَٱعْتَصَمُوا بِسَابَاطَ وَسَرَّهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ. فَكَانَتْ وَقْعَةُ ٱلْبُوَيْبِ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلَثَ عَشْرَةَ قَتَلَ ٱللهُ مِهْرَانَ وَجَيْشَهُ وَأَفْعَمُوا جَنْبَتَيِ ٱلْبُوَيْبِ عِظَامًا حَتَّى ٱسْتَوَى وَمَا عَفَّى عَلَيْهَا ٱلتُّرَابُ أَزْمَانَ ٱلْفِتْنَـةِ وَمَا يُثَارُ هُنَالِكَ شَيْءٌ إِلَّا وَقَعُوا مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ. وَهُوَ مَا بَيْنَ ٱلسُّكُونِ

وَمَرْهَبَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَكَانَ مَغِيضًا لِلْفُرَاتِ أَزْمَانَ ٱلْأَكَاسِرَةِ يَصُبُّ فِي ٱلْجَوْفِ. وَقَالَ ٱلْأَعْوَرُ ٱلْعَبْدِيُّ ٱلشَّنِّيُّ

هَاجَتْ لِأَعْوَرَ دَارُ ٱلْحَيِّ إِحْنَانَا   وَٱسْتَبْدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ خَفَّانَا

وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَٱلشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ   إِذْ بِٱلنُّجَيْلَةِ قَتْلُ جُنْدِ مِهْرَانَا

أَزْمَانَ سَارَ ٱلْمُثَنَّى بِٱلْخُيُولِ لَهُمْ   فَقَتَّلَ ٱلزَّحْفَ مِنْ فُرْسٍ وَجِيلَانَا

سَمَا لِمِهْرَانَ وَٱلْجَيْشِ ٱلَّذِي مَعَهُ   حَتَّى أَبَادَهُمُ مَثْنَى وَوُحْدَانَا

نُخْبَةٌ

مِنْ كِتَابِ ٱلْفَخْرِيِّ فِي ٱلْآدَابِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ (١)

بُويِعَ بِٱلْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِئَةٍ. كَانَ ٱلرَّشِيدُ مِنْ أَفَاضِلِ ٱلْخُلَفَاءِ وَفُصَحَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَكُرَمَائِهِمْ كَانَ يَحُجُّ سَنَةً وَيَغْزُو سَنَةً. كَذٰلِكَ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ إِلَّا سِنِينَ قَلِيلَةً. قَالُوا: وَكَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ. وَحَجَّ مَاشِيًا. وَلَمْ يَحُجَّ خَلِيفَةٌ مَاشِيًا غَيْرُهُ. وَكَانَ إِذَا حَجَّ حَجَّ مَعَهُ مِئَةٌ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ وَأَبْنَاؤُهُمْ. وَإِذَا لَمْ يَحُجَّ أَحَجَّ ثَلَثَمِائَةِ رَجُلٍ بِٱلنَّفَقَةِ ٱلسَّابِغَةِ. وَٱلْكُسْوَةِ ٱلظَّاهِرَةِ. وَكَانَ يَتَشَبَّهُ فِي أَفْعَالِهِ بِٱلْمَنْصُورِ إِلَّا فِي بَذْلِ ٱلْمَالِ. فَإِنَّهُ لَمْ يُرَ خَلِيفَةٌ أَسْمَحَ مِنْهُ بِٱلْمَالِ. وَكَانَ لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا يُؤَخِّرُ. وَكَانَ يُحِبُّ ٱلشِّعْرَ

---

(١) اما هرون الرشيد احد الخلفاء العباسيين فقد ولد في سنة ٧٦٥ في ري من ميديا وتوفي في سنة ٨٠٩ في طوس. وقد اشتهر هذا الخليفة بمحاربتهِ جيوش الملكة ايرينا في اسيا الصغرى لما قام مقام اخيهِ موسى الهادي على السدة الملوكية في سنة ٧٨٦. فشقّ على موسى فلاح اخيهِ هارون فقصد قتلهُ. فلما رأَت والدتهما ان لا بد من قتل احد ولديها اختارت موت موسى على هارون الذي رفع شان دولة العباسيين الى اعلى ذرى العظمة والمجد. ففتح الفتوحات الشهيرة في اسيا وحارب مرارًا ايرينا ونيكفور الى ان اجبرهما على اداء الجزية وانسحت اتصالاتهُ حتّى المغرب. وتحابّ مع كارلوس الكبير ملك فرنسا. وممّا امتاز بهِ هذا الخليفة حسن التفاته الى العلوم والصنائع فازهرت في ايام دولتهِ. فحط العلماء والادباء عصا الترحال عند بلاطهِ. غير انهُ كثيرًا ما ابدى من القساوة المنكرة لاسيما ضد البرامكة الذين كانوا قد حازوا ملؤ ااذ امهِ

وَٱلشُّعَرَاءَ وَيَمِيلُ إِلَى أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْفِقْهِ. وَيَكْرَهُ ٱلْمِرَاءَ فِي ٱلدِّينِ. وَكَانَ يُحِبُّ ٱلْمَدِيحَ لَاسِيَّمَا مِنْ شَاعِرٍ فَصِيحٍ. وَيُجْزِلُ ٱلْعَطَاءَ عَلَيْهِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: صَنَعَ ٱلرَّشِيدُ طَعَامًا وَزَخْرَفَ مَجَالِسَهُ وَأَحْضَرَ أَبَا ٱلْعَتَاهِيَةِ وَقَالَ لَهُ: صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا: فَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا   فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ ٱلْقُصُورِ

فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا: فَقَالَ:

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا ٱشْتَهَيْتَ   لَدَى ٱلرَّوَاحِ أَوِ ٱلْبُكُورِ

فَقَالَ: حَسَنٌ ثُمَّ مَاذَا: فَقَالَ:

فَإِذَا ٱلنُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ   فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ ٱلصُّدُورِ

فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا   مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فَبَكَى ٱلرَّشِيدُ. فَقَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى: بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِتَسُرَّهُ فَحَزَنْتَهُ: فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: دَعْهُ فَإِنَّهُ رَآنَا فِي عَمًى فَكَرِهَ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْهُ.

وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ يَتَوَاضَعُ لِلْعُلَمَاءِ. قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ٱلضَّرِيرُ: وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلنَّاسِ. أَكَلْتُ مَعَ ٱلرَّشِيدِ يَوْمًا. فَصَبَّ عَلَى يَدِي ٱلْمَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ. أَتَدْرِي مَنْ صَبَّ ٱلْمَاءَ عَلَى يَدِكَ: فَقُلْتُ لَا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ أَنَا. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هٰذَا إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ. قَالَ نَعَمْ

فِي أَيَّامِهِ خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. شَرْحُ كَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ

كَانَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ ٱللهِ قَدْ خَافَ مِمَّا جَرَى عَلَى أَخَوَيْهِ ٱلنَّفْسِ ٱلزَّكِيَّةِ وَإِبْرٰهِيمَ قَتِيلِ بَاخَمْرِي. فَمَضَى إِلَى ٱلدَّيْلَمِ. فَٱعْتَقَدُوا فِيهِ ٱسْتِحْقَاقَ ٱلْإِمَامَةِ وَبَايَعُوهُ وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ. فَٱغْتَمَّ ٱلرَّشِيدُ لِذٰلِكَ. وَنَدَبَ إِلَيْهِ ٱلْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى فِي خَمْسِينَ أَلْفًا وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ وَٱلرَّيَّ وَغَيْرَ ذٰلِكَ. فَتَوَجَّهَ ٱلْفَضْلُ بِٱلْجُنُودِ. فَلَطَفَ بِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللهِ وَحَذَّرَهُ وَخَوَّفَهُ وَرَغَّبَهُ. فَمَالَ يَحْيَى إِلَى ٱلصُّلْحِ وَطَلَبَ أَمَانًا بِخَطِّ ٱلرَّشِيدِ وَأَنْ يُشْهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ ٱلْقُضَاةَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَجِلَّةَ بَنِي هَاشِمٍ. فَأَجَابَهُ ٱلرَّشِيدُ إِلَى ذٰلِكَ وَسُرَّ بِهِ وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا بَلِيغًا بِخَطِّهِ. وَشَهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ ٱلْقُضَاةُ وَٱلْفُقَهَاءُ وَمَشَايِخُ بَنِي هَاشِمٍ وَسَيَّرَ ٱلْأَمَانَ مَعَ هَدَايَا وَتُحَفٍ. فَقَدِمَ يَحْيَى مَعَ ٱلْفَضْلِ. فَلَقِيَهُ ٱلرَّشِيدُ فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ. ثُمَّ حَبَسَهُ عِنْدَهُ وَٱسْتَفْتَى ٱلْفُقَهَاءَ فِي نَقْضِ ٱلْأَمَانِ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِصِحَّتِهِ فَحَاجَّهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِبُطْلَانِهِ فَأَبْطَلَهُ. ثُمَّ قَتَلَهُ بَعْدَ ظُهُورِ آيَةٍ لَهُ عَظِيمَةٍ

شَرْحُ ٱلْآيَةِ ٱلَّتِي ظَهَرَتْ فِي قَضِيَّةِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللهِ

حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ آلِ ٱلزُّبَيْرِ بْنِ ٱلْعَوَّامِ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ وَسَعَى بِيَحْيَى وَقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ ٱلْأَمَانِ فَعَلَ وَصَنَعَ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ. فَأَحْضَرَهُ ٱلرَّشِيدُ مِنْ مَحْبَسِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلزُّبَيْرِيِّ. وَسَأَلَهُ عَنْ

ذٰلِكَ فَأَنْكَرَ . فَوَاقَفَهُ ٱلزُّبَيْرِيُّ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَاحْلِفْ : فَقَالَ ٱلزُّبَيْرِيُّ : وَٱللهِ ٱلطَّالِبِ ٱلْغَالِبِ وَأَرَادَ أَنْ يُتَمِّمَ ٱلْيَمِينَ : فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : دَعْ هٰذِهِ ٱلْيَمِينَ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِذَا مَجَّدَهُ ٱلْعَبْدُ لَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَهُ . وَلٰكِنِ ٱحْلِفْ لِي بِيَمِينِ ٱلْبَرَاءَةِ . وَهِيَ يَمِينٌ عُظْمَى صُورَتُهَا أَنْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ : بَرِئَ مِنْ حَوْلِ ٱللهِ وَقُوَّتِهِ . وَدَخَلَ فِي حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا : فَلَمَّا سَمِعَ ٱلزُّبَيْرِيُّ هٰذِهِ ٱلْيَمِينَ ٱرْتَاعَ لَهَا وَقَالَ : مَا هٰذِهِ ٱلْيَمِينُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱمْتَنَعَ مِنَ ٱلْحَلِفِ بِهَا : فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ : مَا مَعْنَى ٱمْتِنَاعِكَ . إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ فَمَا خَوْفُكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْيَمِينِ : فَحَلَفَ بِهَا . فَمَا خَرَجَ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ حَتَّى ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَمَاتَ . وَقِيلَ مَا ٱنْقَضَى ٱلنَّهَارُ حَتَّى مَاتَ . فَحَمَلُوهُ إِلَى ٱلْقَبْرِ وَحَطُّوهُ فِيهِ وَأَرَادُوا أَنْ يَطُمُّوا ٱلْقَبْرَ بِٱلتُّرَابِ . فَكَانُوا كُلَّمَا جَعَلُوا ٱلتُّرَابَ فِيهِ ذَهَبَ ٱلتُّرَابُ وَلَا يَنْطَمُّ ٱلْقَبْرُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا آيَةٌ سَمَاوِيَّةٌ . فَسَقَّفُوا ٱلْقَبْرَ وَرَاحُوا . وَإِلَى ذٰلِكَ أَشَارَ أَبُو فِرَاسِ بْنُ حَمْدَانَ فِي مِيمِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ :

يَا جَاهِدًا فِي مَسَاوِيهِمْ يُكَتِّمُهَا
غَدْرُ ٱلرَّشِيدِ بِيَحْيَى كَيْفَ يَنْكَتِمُ

ذَاقَ ٱلزُّبَيْرِيُّ غِبَّ ٱلْحِنْثِ وَٱنْكَشَفَتْ
عَنِ ٱبْنِ فَاطِمَةَ ٱلْأَقْوَالُ وَٱلتُّهَمُ

وَمَعَ ظُهُورِ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْآيَةِ ٱلْعَظِيمَةِ قُتِلَ يَحْيَى فِي ٱلْحَبْسِ شَرَّ قِتْلَةٍ

وَكَانَتْ دَوْلَةُ ٱلرَّشِيدِ مِنْ أَحْسَنِ ٱلدُّوَلِ وَأَكْثَرِهَا وَقَارًا وَرَوْنَقًا وَخَيْرًا وَأَوْسَعِهَا رُقْعَةَ مَمْلَكَةٍ. جَبَى ٱلرَّشِيدُ مُعْظَمَ ٱلدُّنْيَا. وَكَانَ أَحَدُ عُمَّالِهِ صَاحِبَ مِصْرَ. وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى بَابِ خَلِيفَةٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْقُرَّاءِ وَٱلْقُضَاةِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلنُّدَمَاءِ وَٱلْمُغَنِّينَ مَا ٱجْتَمَعَ عَلَى بَابِ ٱلرَّشِيدِ. وَكَانَ يَصِلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْزَلَ صِلَةٍ وَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ. وَكَانَ فَاضِلًا شَاعِرًا رَاوِيَةً لِلْأَخْبَارِ وَٱلْآثَارِ وَٱلْأَشْعَارِ. صَحِيحَ ٱلذَّوْقِ وَٱلتَّمْيِيزِ مَهِيبًا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ. قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. وَأَحْضَرَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ. فَحَبَسَهُ بِدَارِ ٱلسِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ. ثُمَّ قَتَلَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ

شَرْحُ كَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ. كَانَ بَعْضُ حُسَّادِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ وَشَى بِهِ إِلَى ٱلرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ ٱلنَّاسَ يَحْمِلُونَ إِلَى مُوسَى خُمْسَ أَمْوَالِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَ إِمَامَتَهُ وَإِنَّهُ عَلَى عَزْمِ ٱلْخُرُوجِ عَلَيْكَ. وَأَكْثَرَ فِي ٱلْقَوْلِ فَوَقَعَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ بِمَوْقِعٍ أَهَمَّهُ وَأَقْلَقَهُ. ثُمَّ أَعْطَى ٱلْوَاشِيَ مَالًا أَحَالَهُ بِهِ عَلَى ٱلْبِلَادِ. فَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ وَمَا وَصَلَ ٱلْمَالُ مِنَ ٱلْبِلَادِ إِلَّا وَقَدْ مَرِضَ مَرْضَةً شَدِيدَةً وَمَاتَ فِيهَا. وَأَمَّا ٱلرَّشِيدُ فَإِنَّهُ حَجَّ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ. فَلَمَّا وَرَدَ ٱلْمَدِينَةَ قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَحَمَلَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ. فَحَبَسَهُ عِنْدَ ٱلسِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ بِٱلرَّقَّةِ. فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ فَقُتِلَ قَتْلًا خَفِيًّا. ثُمَّ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُدُولِ بِٱلْكَرْخِ لِيُشَاهِدُوهُ إِظْهَارًا أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. صَلَوَاتُ

اللّٰهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ. وَمَاتَ الرَّشِيدُ بِطُوسَ. وَكَانَ خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ لِمُحَارَبَةِ رَافِعِ بْنِ اللَّيْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ. وَكَانَ هٰذَا رَافِعٌ قَدْ خَرَجَ وَخَلَعَ الطَّاعَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَتَلَ عَامِلَهَا وَمَلَكَهَا وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ فَخَرَجَ الرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ. فَمَاتَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ

شَرْحُ حَالِ الْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِهِ

لَمَّا بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ اسْتَوْزَرَ كَاتِبَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ بَنِي بَرْمَكَ مُذْ حِينَئِذٍ

شَرْحُ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْبَرْمَكِيَّةِ وَذِكْرُ مَبْدَإِهَا وَمَآلِهَا. كَانُوا قَدِيمًا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِ. ثُمَّ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ. وَهٰذِهِ الدَّوْلَةُ الْبَرْمَكِيَّةُ كَانَتْ غُرَّةً فِي جَبْهَةِ الدَّهْرِ وَتَاجًا عَلَى مَفْرِقِ الْعَصْرِ. ضُرِبَتْ بِمَكَارِمِهَا الْأَمْثَالُ. وَشُدَّتْ إِلَيْهَا الرِّحَالُ. وَنِيطَتْ بِهَا الْآمَالُ. وَبَذَلَتْ لَهَا الدُّنْيَا أَفْلَاذَ أَكْبَادِهَا. وَمَنَحَتْهَا أَوْفَرَ إِسْعَادِهَا. فَكَانَ يَحْيَى وَبَنُوهُ كَالنُّجُومِ زَاهِرَةً. وَالْبُحُورِ زَاخِرَةً. وَالسُّيُولِ دَافِقَةً. وَالْغُيُوثِ مَاطِرَةً. أَسْوَاقُ الْآدَابِ عِنْدَهُمْ نَافِقَةٌ. وَمَرَاتِبُ ذَوِي الْحُرُمَاتِ عِنْدَهُمْ عَالِيَةٌ. وَالدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِمْ عَامِرَةٌ. وَأُبَّهَةُ الْمَمْلَكَةِ ظَاهِرَةٌ. وَهُمْ مَلْجَأُ اللَّهِيفِ وَمُعْتَصَمُ الطَّرِيدِ. وَلَهُمْ يَقُولُ أَبُو نُوَاسٍ:

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِ

ذِكْرُ وِزَارَةِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لِلرَّشِيدِ. لَمَّا جَلَسَ الرَّشِيدُ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ اسْتَوْزَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ. وَكَانَ كَاتِبَهُ وَنَائِبَهُ

وَوَزِيرَهُ قَبْلَ ٱلْخِلَافَةِ . فَنَهَضَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِأَعْبَاءِ ٱلدَّوْلَةِ أَتَمَّ نُهُوضٍ . وَسَدَّ ٱلثُّغُورَ . وَتَدَارَكَ ٱلْخَلَلَ . وَجَبَى ٱلْأَمْوَالَ . وَعَمَّرَ ٱلْأَطْرَافَ . وَأَظْهَرَ رَوْنَقَ ٱلْخِلَافَةِ . وَتَصَدَّى لِمُهِمَّاتِ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَكَانَ كَاتِبًا بَلِيغًا لَبِيبًا أَدِيبًا شَدِيدًا صَائِبَ ٱلْآرَاءِ حَسَنَ ٱلتَّدْبِيرِ . ضَابِطًا لِمَا تَحْتَ يَدِهِ . قَوِيًّا عَلَى ٱلْأُمُورِ . جَوَادًا يُبَارِي ٱلرِّيحَ كَرَمًا وَجُودًا . مُمَدَّحًا بِكُلِّ لِسَانٍ . حَلِيمًا عَفِيفًا وَقُورًا مَهِيبًا وَلَهُ يَقُولُ ٱلْقَائِلُ :

لَا تَرَانِي مُصَافِحًا كَفَّ يَحْيَى ... إِنَّنِي إِنْ فَعَلْتُ ضَيَّعْتُ مَالِي
لَوْ يَمَسُّ ٱلْبَخِيلُ رَاحَةَ يَحْيَى ... لَسَخَتْ نَفْسُهُ بِبَذْلِ ٱلنَّوَالِ

وَمِنْ آرَاءِ يَحْيَى ٱلسَّدِيدَةِ مَا قَالَهُ لِلْهَادِي . وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَخْلَعَ أَخَاهُ هٰرُونَ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ وَيُبَايِعَ لِٱبْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ ٱلْهَادِي . وَكَانَ يَحْيَى كَاتِبَ ٱلرَّشِيدِ وَهُوَ يَتَرَجَّى أَنْ يَتَوَلَّى هٰرُونُ ٱلْخِلَافَةَ فَيَصِيرَ هُوَ وَزِيرَ ٱلدَّوْلَةِ . فَخَلَا ٱلْهَادِي بِيَحْيَى وَوَهَبَ لَهُ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَحَادَثَهُ فِي خَلْعِ هٰرُونَ أَخِيهِ وَٱلْمُبَايَعَةِ لِجَعْفَرٍ ٱبْنِهِ . فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ : إِنْ فَعَلْتَ حَمَلْتَ ٱلنَّاسَ عَلَى نَكْثِ ٱلْإِيمَانِ وَنَقْضِ ٱلْعُهُودِ . وَتَجَرَّأَ ٱلنَّاسُ عَلَى مِثْلِ ذٰلِكَ . وَلَوْ تَرَكْتَ أَخَاكَ هٰرُونَ عَلَى وِلَايَةِ ٱلْعَهْدِ ثُمَّ بَايَعْتَ لِجَعْفَرٍ بَعْدَهُ كَانَ ذٰلِكَ أَوْكَدَ فِي بَيْعَتِهِ : فَتَرَكَ ٱلْهَادِي ذٰلِكَ مُدَّةً . ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ ٱلْوَلَدِ . فَأَحْضَرَ يَحْيَى مَرَّةً ثَانِيَةً وَفَاوَضَهُ فِي ذٰلِكَ . فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . لَوْ حَدَثَ بِكَ حَادِثُ ٱلْمَوْتِ وَقَدْ خَلَعْتَ أَخَاكَ

وَبَايَعتَ لِابْنِكَ جَعْفَرٍ وَهُوَ صَغِيرٌ دُونَ الْبُلُوغِ. أَفَتَرَى كَانَتْ خِلَافَتُهُ تَصِحُّ. وَكَانَ مَشَايِخُ بَنِي هَاشِمٍ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ وَيُسَلِّمُونَ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ: قَالَ لَا. قَالَ يَحْيَى: فَدَعْ هٰذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَأْتِيَهُ عَفْوًا. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَهْدِيُّ بَايَعَ لِهٰرُونَ لَوَجَبَ أَنْ تُبَايِعَ أَنْتَ لَهُ لِئَلَّا تَخْرُجَ الْخِلَافَةُ مِنْ بَنِي أَبِيكَ: فَصَوَّبَ الْهَادِي رَأْيَهُ. وَكَانَ الرَّشِيدُ بَعْدَ ذٰلِكَ يَرَى هٰذِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَيَادِي يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ عِنْدَهُ

وَمِنْ مَكَارِمِهِ. قِيلَ إِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا نَكَبَ الْبَرَامِكَةَ وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ. حَرَّمَ عَلَى الشُّعَرَاءِ أَنْ يَرْثُوهُمْ وَأَمَرَ بِالْمُؤَاخَذَةِ عَلَى ذٰلِكَ. فَاجْتَازَ بَعْضُ الْحَرَسِ بِبَعْضِ الْخَرِبَاتِ. فَرَأَى إِنْسَانًا وَاقِفًا وَفِي يَدِهِ رُقْعَةٌ فِيهَا شِعْرٌ يَتَضَمَّنُ رِثَاءَ الْبَرَامِكَةِ وَهُوَ يُنْشِدُهُ وَيَبْكِي. فَأَخَذَهُ الْحَرَسُ وَأَتَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَصَّ عَلَيْهِ الصُّورَةَ. فَاسْتَحْضَرَهُ الرَّشِيدُ وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ. فَاعْتَرَفَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: أَمَا سَمِعْتَ تَحْرِيمِي لِرِثَائِهِمْ. لَأَفْعَلَنَّ بِكَ وَلَأَصْنَعَنَّ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَذِنْتَ لِي فِي حِكَايَةِ حَالِي حَكَيْتُهَا ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيَكَ. قَالَ قُلْ. قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَصْغَرِ كُتَّابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَأَرَقِّهِمْ حَالًا. فَقَالَ لِي يَوْمًا: أُرِيدُ أَنْ تُضَيِّفَنِي فِي دَارِكَ يَوْمًا فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا أَنَا دُونَ ذٰلِكَ وَدَارِي لَا تَصْلُحُ لِهٰذَا. قَالَ: لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ. قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَمْهِلْنِي مُدَّةً حَتَّى أُصْلِحَ شَأْنِي وَمَنْزِلِي. ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيَكَ. قَالَ: كَمْ أُمْهِلُكَ. قُلْتُ سَنَةً. قَالَ كَثِيرٌ. قُلْتُ فَشُهُورًا.

قَالَ نَعَمْ . فَمَضَيْتُ وَشَرَعْتُ فِي إِصْلَاحِ ٱلْمَنْزِلِ وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ٱلدَّعْوَةِ. فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ ٱلْأَسْبَابُ أَعْلَمْتُ ٱلْوَزِيرَ بِذٰلِكَ فَقَالَ: نَحْنُ غَدًا عِنْدَكَ. فَمَضَيْتُ وَتَهَيَّأْتُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . فَحَضَرَ ٱلْوَزِيرُ فِي غَدٍ وَمَعَهُ ٱبْنَاهُ جَعْفَرٌ وَٱلْفَضْلُ وَعِدَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ خَوَاصِّ أَتْبَاعِهِ. فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَنَزَلَ وَلَدَاهُ جَعْفَرٌ وَٱلْفَضْلُ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ: يَا فُلَانُ أَنَا جَائِعٌ فَعَجِّلْ لِي بِشَيْءٍ . فَقَالَ لِيَ ٱلْفَضْلُ ٱبْنُهُ : ٱلْوَزِيرُ يُحِبُّ ٱلْفَرَارِيجَ ٱلْمَشْوِيَّةَ . فَعَجِّلْ مِنْهَا مَا حَضَرَ . فَدَخَلْتُ وَأَحْضَرْتُ شَيْئًا. فَأَكَلَ ٱلْوَزِيرُ ثُمَّ قَامَ يَتَمَشَّى فِي ٱلدَّارِ وَقَالَ : يَا فُلَانُ فَرِّجْنَا فِي دَارِكَ . فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا هٰذِهِ هِيَ دَارِي لَيْسَ لِي غَيْرُهَا . قَالَ بَلَى لَكَ غَيْرُهَا . قُلْتُ وَٱللهِ مَا أَمْلِكُ سِوَاهَا . فَقَالَ : هَاتُوا بَنَّاءً . فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ : ٱفْتَحْ فِي هٰذَا ٱلْحَائِطِ بَابًا . فَمَضَى لِيَفْتَحَ . فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفْتَحَ بَابٌ إِلَى بُيُوتِ ٱلْجِيرَانِ وَٱللهُ أَوْصَى بِحِفْظِ ٱلْجَارِ . قَالَ: لَا بَأْسَ فِي ذٰلِكَ ثُمَّ فَتَحَ ٱلْبَابَ . فَقَامَ ٱلْوَزِيرُ وَأَبْنَاؤُهُ فَدَخَلُوا فِيهِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْمَاءُ يَتَدَفَّقُ فِيهِ وَبِهِ مِنَ ٱلْمَقَاصِيرِ وَٱلْمَسَاكِنِ مَا يَرُوقُ كُلَّ نَاظِرٍ وَفِيهِ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلْخَدَمِ وَٱلْجَوَارِي كُلُّ جَمِيلٍ بَدِيعٍ. فَقَالَ: هٰذَا ٱلْمَنْزِلُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِ لَكَ . فَقَبَّلْتُ يَدَهُ وَدَعَوْتُ لَهُ وَتَحَقَّقْتُ ٱلْقِصَّةَ . فَإِذَا هُوَ مِنْ يَوْمِ حَادَثَنِي فِي مَعْنَى ٱلدَّعْوَةِ قَدْ أَرْسَلَ وَٱشْتَرَى ٱلْأَمْلَاكَ ٱلْمُجَاوِرَةَ لِي . وَعَمَّرَهَا دَارًا حَسَنَةً وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ وَكُنْتُ أَرَى ٱلْعِمَارَةَ وَأَحْسَبُهَا لِبَعْضِ ٱلْجِيرَانِ. فَقَالَ لِٱبْنِهِ جَعْفَرٍ: يَا بُنَيَّ هٰذَا مَنْزِلُ وَعِيَالُهُ. وَٱلْمَادَّةُ مِنْ أَيْنَ تَكُونُ لَهُ. قَالَ جَعْفَرٌ: قَدْ أَعْطَيْتُهُ ٱلضَّيْعَةَ ٱلْفُلَانِيَّةَ بِمَا فِيهَا وَسَأَكْتُبُ لَهُ بِذٰلِكَ كِتَابًا فَٱلْتَفَتَ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ. فَمِنَ ٱلْآنِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ دَخْلُ هٰذِهِ ٱلضَّيْعَةِ مَا ٱلَّذِي يُنْفِقُ. فَقَالَ ٱلْفَضْلُ: عَلَيَّ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ أَحْمِلُهَا إِلَيْهِ. فَقَالَ: فَعَجِّلَا لَهُ مَا قُلْتُمَا. فَكَتَبَ لِي جَعْفَرٌ بِٱلضَّيْعَةِ وَحَمَلَ ٱلْفَضْلُ إِلَيَّ ٱلْمَالَ فَأَثْرَيْتُ وَٱرْتَفَعَتْ حَالِي وَكَسَبْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَهُ مَالًا طَائِلًا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى ٱلْيَوْمِ. فَوَٱللّٰهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا أَجِدُ فُرْصَةً أَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنَ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَٱلدُّعَاءِ لَهُمْ إِلَّا ٱنْتَهَزْتُهَا مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ. فَإِنْ كُنْتَ قَاتِلِي عَلَى ذٰلِكَ. فَٱفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ. فَرَقَّ ٱلرَّشِيدُ لِذٰلِكَ وَأَطْلَقَهُ وَأَذِنَ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ فِي رِثَائِهِمْ

قِيلَ إِنَّ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدَ حَجَّ. وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ. وَمَعَهُ وَلَدَاهُ ٱلْفَضْلُ وَجَعْفَرٌ. فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ جَلَسَ ٱلرَّشِيدُ وَمَعَهُ يَحْيَى. فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ. وَجَلَسَ ٱلْأَمِينُ وَمَعَهُ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ. وَجَلَسَ ٱلْمَأْمُونُ وَمَعَهُ جَعْفَرٌ فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ. فَأَعْطَوْا فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ ثَلَاثَ أَعْطِيَاتٍ ضُرِبَتْ بِكَثْرَتِهَا ٱلْأَمْثَالُ. وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ عَامَ ٱلْأَعْطِيَاتِ ٱلثَّلْثِ وَأَثْرَى ٱلنَّاسُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ. وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ

أَتَانَا بَنُو ٱلْآمَالِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فَيَا طِيبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى ٱلْعِدَى ... وَأُخْرَى إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٱلْمُسَتَّرِ
إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ ... بِيَحْيَى وَبِٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادُ وَتَجْلُو لَنَا ٱلدُّجَى ... بِمَكَّةَ مَا تَحْوُو ثَلَاثَةُ أَقْمُرِ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لِجُودٍ أَكُفُّهُمْ ... وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مِنْبَرِ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى ٱلْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ ... وَنَاهِيكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمُدَبِّرِ

كَانَ يَحْيَى يَقُولُ: مَا خَاطَبَنِي أَحَدٌ إِلَّا هِبْتُهُ. حَتَّى يَتَكَلَّمَ. فَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ بَيْنَ ٱثْنَتَيْنِ. إِمَّا أَنْ تَزِيدَ هَيْبَتُهُ أَوْ تَضْمَحِلَّ. وَكَانَ يَقُولُ: ٱلْمَوَاعِيدُ شِبَاكُ ٱلْكِرَامِ يَصِيدُونَ بِهَا مَحَامِدَ ٱلْأَحْرَارِ. كَانَ يَحْيَى إِذَا رَكِبَ يُعِدُّ صُرَرًا فِي كُلِّ صُرَّةٍ مِئَتَا دِرْهَمٍ يَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْمُتَعَرِّضِينَ لَهُ

سِيرَةُ وَلَدِهِ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى

كَانَ ٱلْفَضْلُ مِنْ كِرَامِ ٱلدُّنْيَا وَأَجْوَادِ أَهْلِ عَصْرِهِ. وَكَانَ قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ. وَأَرْضَعَتْ أُمُّهُ ٱلرَّشِيدَ. وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ

كَفَى لَكَ فَخْرًا أَنَّ أَكْرَمَ حُرَّةٍ ... غَذَتْكَ بِثَدْيٍ وَٱلْخَلِيفَةَ وَاحِدِ
لَقَدْ زِنْتَ يَحْيَى فِي ٱلْمَشَاهِدِ كُلِّهَا ... كَمَا زَانَ يَحْيَى خَالِدًا فِي ٱلْمَشَاهِدِ

وَلَّاهُ ٱلرَّشِيدُ خُرَاسَانَ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلْهَوْلِ ٱلشَّاعِرُ مَادِحًا مُعْتَذِرًا مِنْ شِعْرٍ كَانَ هَجَاهُ بِهِ فَأَنْشَدَهُ

سَرَى نَحْوَهُ مِنْ غَضْبَةِ ٱلْفَضْلِ عَارِضٌ
لَهُ لُجَّةٌ فِيهَا ٱلْبَوَارِقُ وَٱلرَّعْدُ
وَكَيْفَ يَنَامُ ٱللَّيْلَ مُلْقٍ فِرَاشَهُ
عَلَى مَدْرَجٍ يَعْتَادُهُ ٱلْأَسَدُ ٱلْوَرْدُ
وَمَا لِي إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
مِنَ ٱلْجُرْمِ مَا يَخْشَى عَلَى مِثْلِهِ ٱلْحِقْدُ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ
وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: لَا أَحْتَمِلُ تَفْرِيقَكَ بَيْنَ رِضَايَ وَإِحْسَانِي. وَهُمَا مَقْرُونَانِ فَإِنْ أَرَدْتَهُمَا مَعًا وَإِلَّا فَدَعْهُمَا مَعًا. ثُمَّ وَصَلَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ

حَدَّثَ إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيُّ قَالَ: كُنْتُ قَدْ رَبَّيْتُ جَارِيَةً وَثَقَّفْتُهَا وَعَلَّمْتُهَا حَتَّى بَرَعَتْ. ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَقَالَ لِي يَا إِسْحٰقُ. إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ مِصْرَ قَدْ وَرَدَ إِلَيَّ يَسْأَلُنِي حَاجَةً أَقْتَرِحُهَا عَلَيْهِ. فَدَعْ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةَ عِنْدَكَ فَإِنِّي سَأَطْلُبُهَا وَأُعْلِمُهُ أَنِّي أُرِيدُهَا. فَإِنَّهُ سَوْفَ يَحْضُرُ إِلَيْكَ وَيُسَاوِمُكَ فِيهَا. فَلَا تَأْخُذْ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ: قَالَ إِسْحٰقُ فَمَضَيْتُ بِٱلْجَارِيَةِ إِلَى مَنْزِلِي. فَجَاءَ إِلَيَّ رَسُولُ صَاحِبِ مِصْرَ وَسَأَلَنِي عَنِ ٱلْجَارِيَةِ فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيْهِ. فَبَذَلَ فِيهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَٱمْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ

إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَامْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَمَا مَلَكْتُ نَفْسِي حَتَّى قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ. وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ وَقَبَضْتُ مِنْهُ الْمَالَ. ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ: يَا إِسْحٰقُ بِكَمْ بِعْتَ الْجَارِيَةَ. قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قُلْتُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَاللّٰهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ. فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ الرُّومِ قَدْ سَأَلَنِي أَيْضًا حَاجَةً وَسَأَقْتَرِحُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْجَارِيَةَ وَأَدُلُّهُ عَلَيْكَ فَخُذْ جَارِيَتَكَ وَانْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ. فَإِذَا سَاوَمَكَ فِيهَا فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَانْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي. فَأَتَانِي رَسُولُ صَاحِبِ الرُّومِ وَسَاوَمَنِي فِي الْجَارِيَةِ. فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ: هٰذَا كَثِيرٌ وَلٰكِنْ تَأْخُذُ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفًا: فَوَاللّٰهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا حَتَّى قُلْتُ لَهُ. قَدْ بِعْتُكَ. ثُمَّ قَبَضْتُ الْمَالَ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ. وَمَضَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ وَبِكَمْ بِعْتَ الْجَارِيَةَ يَا إِسْحٰقُ. قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا. قَالَ سُبْحَانَ اللّٰهِ مَا أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَاللّٰهِ إِنِّي لَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا اسْتَرْخَتْ جَمِيعُ أَعْضَائِي. فَضَحِكَ وَقَالَ: خُذْ جَارِيَتَكَ وَاذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ. فَفِي غَدٍ يَجِيءُ إِلَيْكَ رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ. فَقَوِّ نَفْسَكَ وَلَا

تَأْخُذُ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قَالَ إِسْحٰقُ : فَأَخَذْتُ ٱلْجَارِيَةَ وَمَضَيْتُ إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ وَسَاوَمَنِي فِيهَا . فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ لِي : هٰذَا كَثِيرٌ وَلٰكِنْ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي وَٱمْتَنَعْتُ . فَصَعِدَ مَعِي إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَكَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ مِنَ ٱلْفَرَحِ وَلَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ : فَأَحْضَرَ ٱلْمَالَ وَأَقْبَضَنِيهِ وَسَلَّمْتُ ٱلْجَارِيَةَ إِلَيْهِ . وَمَضَيْتُ مِنَ ٱلْغَدِ إِلَى ٱلْفَضْلِ فَقَالَ لِي : بِكَمْ بِعْتَ ٱلْجَارِيَةَ : قُلْتُ : بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا . وَوَٱللّٰهِ لَمَّا سَمِعْتُهَا مِنْهُ كَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ . وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي جُعِلْتُ فِدَاكَ مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ . وَلَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ . فَأَحْسَنَ ٱللّٰهُ جَزَاءَكَ . فَأَمَرَ بِٱلْجَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ إِلَيَّ وَقَالَ يَا إِسْحٰقُ خُذْ جَارِيَتَكَ وَٱنْصَرِفْ . قَالَ إِسْحٰقُ : فَقُلْتُ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةُ وَٱللّٰهِ أَعْظَمُ ٱلنَّاسِ بَرَكَةً فَأَعْتَقْتُهَا وَتَزَوَّجْتُهَا فَوَلَدَتْ لِي أَوْلَادِي

قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ ٱلْإِمَامِ ٱبْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَمَعَهُ سَفَطٌ فِيهِ جَوْهَرٌ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ حَاصِلِي قَدْ قَصُرَ عَمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَقَدْ عَلَانِي دَيْنٌ مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أُعْلِمَ أَحَدًا بِذٰلِكَ وَآنَفُ أَنْ أَسْأَلَ أَحَدًا مِنَ ٱلتُّجَّارِ أَنْ يُقْرِضَنِي ذٰلِكَ . وَإِنْ كَانَ مَعِي رَهْنٌ يَفِي بِٱلْقِيمَةِ . وَأَنْتَ أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ لَكَ تُجَّارٌ يُعَامِلُونَكَ . وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْتَرِضَ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ هٰذَا ٱلْمَبْلَغَ وَتُعْطِيَهُ هٰذَا ٱلرَّهْنَ :

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: ٱلسَّمْعُ وَٱلطَّاعَةُ وَلٰكِنَّ نُجْحَ هٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَنْ تُقِيمَ عِنْدِي هٰذَا ٱلْيَوْمَ. فَأَقَامَ عِنْدَهُ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْفَضْلَ أَخَذَ ٱلسَّفَطَ مِنْهُ وَهُوَ مَخْتُومٌ بِخَتْمِهِ. وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَنَفَّذَ ٱلدَّرَاهِمَ وَٱلسَّفَطَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخَذَ خَطَّ وَكِيلِهِ بِقَبْضِهِ. فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ فِي دَارِ ٱلْفَضْلِ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ. ثُمَّ ٱنْصَرَفَ إِلَى دَارِهِ فَوَجَدَ ٱلسَّفَطَ وَمَعَهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَسُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ بَكَّرَ إِلَى ٱلْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ عَلَى ذٰلِكَ. فَوَجَدَهُ قَدْ بَكَّرَ إِلَى دَارِ ٱلرَّشِيدِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ ٱلرَّشِيدِ. فَلَمَّا عَلِمَ ٱلْفَضْلُ بِهِ خَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِيهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ. فَحِينَ عَلِمَ بِهِ خَرَجَ بِبَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ وَٱجْتَمَعَ بِهِ وَشَكَرَهُ عَلَى فِعْلِهِ وَقَالَ: إِنِّي بَكَّرْتُ إِلَيْكَ لِأَشْكُرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ: فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ فَرَأَيْتُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَ أَلْفِ ٱلَّتِي حَمَلْتُهَا أَمْسِ إِلَيْكَ تَقْضِي بِهَا دَيْنَكَ. ثُمَّ تَحْتَاجُ فَتَقْتَرِضُ. فَبَعْدَ قَلِيلٍ يَعْلُوكَ مِثْلُهَا. فَبَكَّرْتُ ٱلْيَوْمَ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَالَكَ وَأَخَذْتُ لَكَ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُخْرَى. فَلَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَرَجْتُ أَنَا بِبَابٍ آخَرَ وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ لَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَبِي لِأَنِّي مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ أَلْقَاكَ حَتَّى يُحْمَلَ ٱلْمَالُ إِلَى مَنْزِلِكَ وَقَدْ حُمِلَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ أُجَازِيكَ عَلَى هٰذَا ٱلْإِحْسَانِ مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُجَازِيكَ بِهِ إِلَّا أَنِّي أَلْتَزِمُ بِٱلْأَيْمَانِ ٱلْمُؤَكَّدَةِ

وَبِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْحَجِّ أَنِّي مَا أَقِفُ عَلَى بَابِ غَيْرِكَ وَلَا أَسْأَلُ سِوَاكَ: قَالُوا. وَحَلَفَ مُحَمَّدٌ أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً وَكَتَبَ بِهَا خَطَّهُ وَأَشْهَدَ بِهَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَقِفُ بِبَابِ غَيْرِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ وَتَوَلَّى الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُمُ احْتَاجَ مُحَمَّدٌ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ رَكِبْتَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَالْتَزَمَ بِالْيَمِينِ فَلَمْ يَرْكَبْ إِلَى أَحَدٍ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ حَتَّى مَاتَ

سِيرَةُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فَصِيحًا لَبِيبًا ذَكِيًّا فَطِنًا كَرِيمًا حَلِيمًا. وَكَانَ الرَّشِيدُ يَأْنَسُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ أُنْسِهِ بِأَخِيهِ الْفَضْلِ لِسُهُولَةِ أَخْلَاقِ جَعْفَرٍ وَشَرَاسَةِ أَخْلَاقِ الْفَضْلِ. قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: يَا أَبِي مَا بَالُ النَّاسِ يُسَمُّونَ الْفَضْلَ الْوَزِيرَ الصَّغِيرَ وَلَا يُسَمُّونَ جَعْفَرًا بِذٰلِكَ: فَقَالَ يَحْيَى: لِأَنَّ الْفَضْلَ يَخْلُفُنِي. قَالَ: فَضُمَّ إِلَى جَعْفَرٍ أَعْمَالًا كَأَعْمَالِ الْفَضْلِ. فَقَالَ يَحْيَى: إِنَّ خِدْمَتَكَ وَمُنَاوَشَتَكَ تَشْغَلَانِهِ عَنْ ذٰلِكَ فَجَعَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ دَارِ الرَّشِيدِ. وَسُمِّيَ بِالْوَزِيرِ الصَّغِيرِ أَيْضًا

قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ دِيوَانَ الْخَاتَمِ مِنَ الْفَضْلِ إِلَى جَعْفَرٍ. وَقَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ مُكَاتَبَتِهِ فِي هٰذَا الْمَعْنَى فَاكْتُبْ أَنْتَ إِلَيْهِ. فَكَتَبَ يَحْيَى إِلَى الْفَضْلِ: قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى اللهُ أَمْرَهُ أَنْ تُحَوِّلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ. فَأَجَابَهُ

ٱلْفَضْلُ: قَدْ سَمِعْتُ لِمَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي أَخِي وَمَا ٱنْتَقَلَتْ عَنِّي نِعْمَةٌ صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبَتْ عَنِّي رُتْبَةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهِ. فَقَالَ جَعْفَرٌ: لِلّٰهِ دَرُّ أَخِي مَا أَكْيَسَ نَفْسَهُ وَأَظْهَرَ دَلَائِلَ ٱلْفَضْلِ عَلَيْهِ وَأَقْوَى مِنَّةَ ٱلْعَقْلِ عِنْدَهُ وَأَوْسَعَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ ذَرْعَهُ

قِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيَّ. جَلَسَ يَوْمًا لِلشُّرْبِ وَأَحَبَّ ٱلْخَلْوَةَ. فَأَحْضَرَ نُدَمَاءَهُ ٱلَّذِينَ يَأْنَسُ بِهِمْ. وَجَلَسَ مَعَهُمْ وَقَدْ هُيِّئَ ٱلْمَجْلِسُ وَلَبِسُوا ٱلثِّيَابَ ٱلْمُصَبَّغَةَ وَكَانُوا إِذَا جَلَسُوا فِي مَجْلِسِ ٱلشَّرَابِ وَٱللَّهْوِ. لَبِسُوا ٱلثِّيَابَ ٱلْحُمْرَ وَٱلصُّفْرَ وَٱلْخُضْرَ. ثُمَّ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى تَقَدَّمَ إِلَى ٱلْحَاجِبِ أَنْ لَا يَأْذَنَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ ٱللّٰهِ تَعَالَى سِوَى رَجُلٍ مِنَ ٱلنُّدَمَاءِ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ. ثُمَّ جَلَسُوا يَشْرَبُونَ. وَدَارَتِ ٱلْكَاسَاتُ. وَخَفَقَتِ ٱلْعِيدَانُ. وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ ٱلْخَلِيفَةِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ. وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْوَقَارِ وَٱلدِّينِ وَٱلْحِشْمَةِ. وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ قَدِ ٱلْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يُنَادِمَهُ وَيَشْرَبَ مَعَهُ وَبَذَلَ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَمْوَالًا جَلِيلَةً فَلَمْ يَفْعَلْ. فَٱتَّفَقَ أَنَّ هٰذَا عَبْدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ صَالِحٍ حَضَرَ إِلَى بَابِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى لِيُخَاطِبَهُ فِي حَوَائِجَ لَهُ. فَظَنَّ ٱلْحَاجِبُ أَنَّهُ هُوَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ ٱلَّذِي تَقَدَّمَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِٱلْإِذْنِ لَهُ وَأَنْ لَا يُدْخِلَ غَيْرَهُ. فَأَذِنَ ٱلْحَاجِبُ لَهُ. فَدَخَلَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ ٱلْعَبَّاسِيُّ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا رَآهُ جَعْفَرٌ

كَادَ عَقْلُهُ يَذْهَبُ مِنَ ٱلْحَيَاءِ وَفَطِنَ أَنَّ ٱلْقَضِيَّةَ قَدِ ٱشْتَبَهَتْ عَلَى ٱلْحَاجِبِ بِطَرِيقِ ٱشْتِبَاهِ ٱلِاسْمِ . وَفَطِنَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَيْضًا لِلْقِصَّةِ وَظَهَرَ لَهُ ٱلْخَجَلُ فِي وَجْهِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى . فَٱنْبَسَطَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ أَحْضِرُوا لَنَا مِنْ هٰذِهِ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُصَبَّغَةِ شَيْئًا . فَأُحْضِرَ لَهُ قَمِيصٌ مَصْبُوغٌ فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ يُبَاسِطُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى وَيُمَازِحُهُ وَقَالَ : ٱسْقُونَا مِنْ شَرَابِكُمْ فَسَقَوْهُ رِطْلًا وَقَالَ : ٱرْفُقُوا بِنَا فَلَيْسَ لَنَا عَادَةٌ بِهٰذَا . ثُمَّ بَاسَطَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وَمَا زَالَ حَتَّى ٱنْبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَزَالَ ٱنْقِبَاضُهُ وَحَيَاؤُهُ . فَفَرِحَ جَعْفَرٌ بِذٰلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ . قَالَ جِئْتُ أَصْلَحَكَ ٱللّٰهُ فِي ثَلَاثِ حَوَائِجَ . أُرِيدُ أَنْ تُخَاطِبَ ٱلْخَلِيفَةَ فِيهَا . أَوَّلُهَا أَنَّ عَلَيَّ دَيْنًا مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُرِيدُ قَضَاءَهُ . ثَانِيهَا أُرِيدُ وِلَايَةً لِٱبْنِي يُشْرِفُ بِهَا قَدْرُهُ . وَثَالِثُهَا أُرِيدُ أَنْ تُزَوِّجَ وَلَدِي بِٱبْنَةِ ٱلْخَلِيفَةِ فَإِنَّهَا بِنْتُ عَمِّهِ وَهُوَ كُفْؤٌ لَهَا . فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : قَدْ قَضَى ٱللّٰهُ هٰذِهِ ٱلْحَوَائِجَ ٱلثَّلَاثَ . أَمَّا ٱلْمَالُ فَفِي هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ يُحْمَلُ إِلَى مَنْزِلِكَ . وَأَمَّا ٱلْوِلَايَةُ فَقَدْ وَلَّيْتُ ٱبْنَكَ مِصْرَ . وَأَمَّا ٱلزَّوَاجُ فَقَدْ زَوَّجْتُهُ فُلَانَةَ ٱبْنَةَ مَوْلَانَا أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِدَاقٍ مَبْلَغُهُ كَذَا وَكَذَا . فَٱنْصَرِفْ فِي أَمَانِ ٱللّٰهِ . فَرَاحَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى مَنْزِلِهِ . فَرَأَى ٱلْمَالَ قَدْ سَبَقَهُ . وَلَمَّا كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ حَضَرَ جَعْفَرٌ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ وَعَرَّفَهُ مَا جَرَى وَأَنَّهُ قَدْ وَلَّاهُ مِصْرَ وَزَوَّجَهُ ٱبْنَتَهُ . فَعَجِبَ ٱلرَّشِيدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَمْضَى ٱلْعَقْدَ وَٱلْوِلَايَةَ .

فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد

وقيل إن جعفر بن يحيى كان بينه وبين صاحب مصر عداوة ووحشة وكان كل منهما مجانبا للآخر. فزور بعض الناس كتابا عن لسان جعفر بن يحيى إلى صاحب مصر مضمونه. أن حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا. وقد آثر التفرج في الديار المصرية فأريد أن تحسن الالتفات إليه وبالغ في الوصية. ثم أخذ الكتاب ومضى إلى مصر وعرضه على صاحبها. فلما وقف عليه تعجب منه وفرح به. إلا أنه حصل عنده ارتياب وشك في الكتاب. فأكرم الرجل وأنزله في دار حسنة وأقام له ما يحتاج إليه وأخذ الكتاب منه وأرسله إلى وكيله ببغداد وقال له: قد وصل شخص من أصحاب الوزير بهذا الكتاب وقد ارتبت به. فأريد أن تتفحص لي عن حقيقة الحال في ذلك. وهل هذا خط الوزير أم لا: وأرسل كتاب الوزير صحبة مكتوبه إلى وكيله. فجاء الوكيل إلى وكيل الوزير وحدثه بالقصة وأراه الكتاب. فأخذه وكيل الوزير ودخل إلى الوزير وعرفه الحال. فلما وقف جعفر بن يحيى على الكتاب علم أنه مزور عليه. وكان عنده جماعة من ندمائه ونوابه. فرمى الكتاب عليهم وقال لهم: أهذا خطي. فتأملوه وأنكروه كلهم وقالوا: هذا مزور على الوزير. فعرفهم صورة الحال

وَأَنَّ ٱلَّذِي زَوَّرَ هٰذَا ٱلْكِتَابَ مَوْجُودٌ بِمِصْرَ عِنْدَ صَاحِبِهَا وَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ عَوْدَ ٱلْجَوَابِ بِتَحْقِيقِ حَالِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَا تَرَوْنَ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْعَلَ فِي هٰذَا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ هٰذَا ٱلرَّجُلُ حَتَّى تَنْحَسِمَ هٰذِهِ ٱلْمَادَّةُ وَلَا يَرْجِعَ أَحَدٌ يَتَجَرَّأُ عَلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ. وَقَالَ آخَرُ: يَنْبَغِي أَنْ تُقْطَعَ يَمِينُهُ ٱلَّتِي زَوَّرَ بِهَا هٰذَا ٱلْخَطَّ. وَقَالَ آخَرُ: يَنْبَغِي أَنْ يُوجَعَ ضَرْبًا وَيُطْلَقَ حَالَ سَبِيلِهِ. وَكَانَ أَحْسَنُهُمْ مَحْضَرًا مَنْ قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ حِرْمَانَهُ وَأَنْ يَعْرِفَ صَاحِبُ مِصْرَ بِحَالِهِ لِيَحْرِمَهُ فَيَكْفِيهِ مِنَ ٱلْعُقُوبَةِ أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ هٰذِهِ ٱلْمَسَافَةَ ٱلْبَعِيدَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ يَرْجِعُ خَائِبًا. فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ حَدِيثِهِمْ. قَالَ جَعْفَرٌ: سُبْحَانَ ٱللّٰهِ أَلَيْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ. قَدْ عَلِمْتُمْ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلْمُجَانَبَةِ وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا كَانَتْ تَمْنَعُهُ عِزَّةُ ٱلنَّفْسِ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ ٱلصُّلْحِ. فَقَدْ قَيَّضَ ٱللّٰهُ لَنَا رَجُلًا فَتَحَ بَيْنَنَا بَابَ ٱلْمُصَالَحَةِ وَٱلْمُكَاتَبَةِ وَأَزَالَ بَيْنَنَا تِلْكَ ٱلْعَدَاوَةَ. فَكَيْفَ يَكُونُ جَزَاؤُهُ مَا ذَكَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ: ثُمَّ أَخَذَ ٱلْقَلَمَ وَكَتَبَ عَلَى ظَاهِرِ ٱلْكِتَابِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ: سُبْحَانَ ٱللّٰهِ كَيْفَ حَصَلَ لَكَ ٱلشَّكُّ فِي خَطِّي. هٰذَا خَطُّ يَدِي وَٱلرَّجُلُ مِنْ أَعَزِّ أَصْحَابِي وَأُرِيدُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ وَتُعِيدَهُ إِلَيَّ سَرِيعًا فَإِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَى حُضُورِهِ: فَلَمَّا وَصَلَ ٱلْكِتَابُ وَفِي ظَاهِرِهِ خَطُّ ٱلْوَزِيرِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ كَادَ يَطِيرُ مِنَ ٱلْفَرَحِ وَأَحْسَنَ إِلَى ٱلرَّجُلِ

غَايَةَ ٱلْإِحْسَانِ وَوَاصَلَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَتُحَفٍ جَمِيلَةٍ. ثُمَّ إِنَّ ٱلرَّجُلَ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ وَهُوَ أَحْسَنُ ٱلنَّاسِ حَالًا. فَحَضَرَ إِلَى مَجْلِسِ جَعْفَرٍ وَوَقَعَ يُقَبِّلُ ٱلْأَرْضَ وَيَبْكِي. فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: مَنْ أَنْتَ أَخِي قَالَ: يَا مَوْلَانَا أَنَا عَبْدُكَ وَصَنِيعَتُكَ ٱلْمُزَوِّرُ ٱلْكَذَّابُ ٱلْمُتَجَرِّئُ. فَعَرَفَهُ جَعْفَرٌ وَبَشَّ بِهِ وَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَقَالَ لَهُ: كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ. فَقَالَ: مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ. فَٱسْتَقَلَّهَا جَعْفَرٌ وَقَالَ: لَازِمْنَا حَتَّى نُضَاعِفَهَا لَكَ. فَلَازَمَهُ مُدَّةً فَكَسَبَ مَعَهُ مِثْلَهَا

وَمَا زَالَتْ دَوْلَةُ ٱلْبَرَامِكَةِ فِي عُلُوٍّ وَٱرْتِفَاعٍ وَتَزَايُدٍ حَتَّى ٱنْحَرَفَتْ عَنْهُمُ ٱلدُّنْيَا. أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱنْحِرَافِ دَوْلَتِهِمْ

حَدَّثَ بَخْتِيشُوعُ ٱلطَّبِيبُ قَالَ: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى ٱلرَّشِيدِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي قَصْرِ ٱلْخُلْدِ مِنْ مَدِينَةِ ٱلسَّلَامِ. وَكَانَ ٱلْبَرَامِكَةُ يَسْكُنُونَ بِحِذَائِهِ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَرْضُ دِجْلَةَ. قَالَ: فَنَظَرَ ٱلرَّشِيدُ فَرَأَى ٱعْتِرَاكَ ٱلْخُيُولِ وَٱزْدِحَامَ ٱلنَّاسِ عَلَى بَابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فَقَالَ: جَزَى ٱللهُ يَحْيَى خَيْرًا تَصَدَّى لِلْأُمُورِ وَأَرَاحَنِي مِنَ ٱلْكَدِّ وَوَفَّرَ أَوْقَاتِي عَلَى ٱللَّذَّةِ. ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَوْقَاتٍ. وَقَدْ شَرَعَ يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ. فَنَظَرَ فَرَأَى ٱلْخُيُولَ كَمَا رَآهَا تِلْكَ ٱلْمَرَّةَ. فَقَالَ ٱسْتَبَدَّ يَحْيَى بِٱلْأُمُورِ دُونِي. فَٱلْخِلَافَةُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لَهُ وَلَيْسَ لِي مِنْهَا إِلَّا ٱسْمُهَا. قَالَ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَنْكُبُهُمْ ثُمَّ نَكَبَهُمْ عَقِيبَ ذٰلِكَ •

شَرْحُ ٱلسَّبَبِ فِي نَكْبَةِ ٱلْبَرَامِكَةِ وَكَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ

إِخْتَلَفَ أَصْحَابُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ فِي ذٰلِكَ . فَقِيلَ كَانَ سَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلرَّشِيدَ كَلَّفَ جعفرَ بْنَ يَحْيَى قَتْلَ رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ. فَتَحَرَّجَ جعفرٌ مِنْ ذٰلِكَ. وَأَطْلَقَ ٱلطَّالِبِيَّ وَسُعِيَ إِلَى ٱلرَّشِيدِ بِجَعفرٍ فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ ٱلطَّالِبِيُّ قَالَ: هُوَ فِي ٱلْحَبْسِ : قَالَ ٱلرَّشِيدُ : بِحَيَاتِي . فَفَطِنَ جعفرَ قَالَ: لَا وَحَيَاتِكَ وَلٰكِنْ أَطْلَقْتُهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَكْرُوهٌ . فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ . فَلَمَّا قَامَ جَعفرٌ قَالَ ٱلرَّشِيدُ: قَتَلَنِي ٱللهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ ثُمَّ نَكَبَهُمْ

وَقِيلَ إِنَّ أَعْدَاءَ ٱلْبَرَامِكَةِ مِثْلَ ٱلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ . مَا زَالُوا يَسْعَوْنَ بِهِمْ إِلَى ٱلرَّشِيدِ وَيَذْكُرُونَ لَهُ أَسْتِبْدَادَهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَٱحْتِجَانَهُمْ لِلْأَمْوَالِ حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ فَأَوْقَعَ بِهِمْ

وَقِيلَ إِنَّ جَعفرًا وَٱلْفَضْلَ ٱبْنَيْ يَحْيَى ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ ٱلْإِدْلَالِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ نُفُوسُ ٱلْمُلُوكِ . فَنَكَبَهُمْ لِذٰلِكَ

وَقِيلَ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ رُئِيَ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَطُوفُ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَيَقُولُ ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ تَسْلُبَنِي أَهْلِي وَمَالِي وَوَلَدِي . فَٱسْلُبْنِي إِلَّا ٱلْفَضْلَ وَلَدِي . ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا مَشَى قَلِيلًا عَادَ وَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّهُ سَمِجٌ بِمِثْلِي أَنْ يَسْتَثْنِيَ عَلَيْكَ ٱللَّهُمَّ وَٱلْفَضْلَ . فَنَكَبَهُمْ ٱلرَّشِيدُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذٰلِكَ

شَرْحُ مَقْتَلِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَالْقَبْضِ عَلَى أَهْلِهِ

كَانَ الرَّشِيدُ قَدْ حَجَّ. فَلَمَّا عَادَ مِنَ الْحَجِّ سَارَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى الْأَنْبَارِ فِي السُّفُنِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ وَرَكِبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى الصَّيْدِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ تَارَةً وَيَلْهُو أُخْرَى وَتُحَفُ الرَّشِيدِ وَهَدَايَاهُ تَأْتِيهِ وَعِنْدَهُ بَخْتَيْشُوعُ الطَّبِيبُ وَأَبُو زَكَّارٍ الْأَعْمَى يُغَنِّيهِ فَلَمَّا أَظَلَّ الْمَسَاءُ دَعَا الرَّشِيدُ مَسْرُورًا الْخَادِمَ. وَكَانَ مُبْغِضًا لِجَعْفَرٍ وَقَالَ: اذْهَبْ فَجِئْنِي بِرَأْسِ جَعْفَرٍ وَلَا تُرَاجِعْنِي. فَوَافَاهُ مَسْرُورٌ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهَجَمَ عَلَيْهِ وَأَبُو زَكَّارٍ يُغَنِّيهِ

فَلَا تَبْعَدْ فَكُلُّ فَتًى سَيَأْتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي

فَلَمَّا دَخَلَ مَسْرُورٌ قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى: لَقَدْ سَرَرْتَنِي بِمَجِيئِكَ وَسُؤْتَنِي بِدُخُولِكَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ. فَقَالَ الَّذِي جِئْتُ بِهِ أَعْظَمُ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُرِيدُ بِكَ. فَوَقَعَ عَلَى رِجْلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَقَالَ لَهُ: عَاوِدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الشَّرَابَ قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ذَٰلِكَ وَقَالَ: دَعْنِي أَدْخُلُ دَارِي فَأُوصِي. فَقَالَ: الدُّخُولُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الْوَصِيَّةُ فَأَوْصِ بِمَا بَدَا لَكَ فَأَوْصَى. ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِ الرَّشِيدِ وَعَدَلَ بِهِ إِلَى قُبَّةٍ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى تُرْسٍ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَدَنِهِ فِي نَطْعٍ وَوَجَّهَ الرَّشِيدُ فَقَبَضَ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَحَبَسَهُمْ بِالرَّقَّةِ وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ. وَمِنْ ظَرِيفِ مَا وَقَعَ

فِي ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱلْعِمْرَانِيُّ ٱلْمُؤَرِّخ قَالَ: حَدَّثَ فُلَانٌ قَالَ: دَخَلْتُ ٱلدِّيوَانَ فَنَظَرْتُ فِي بَعْضِ تَذَاكِرِ ٱلثَّوَابِ فَرَأَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ثَمَنَ خِلْعَةٍ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْوَزِيرِ. ثُمَّ دَخَلْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَأَيْتُ تَحْتَ ذٰلِكَ عَشَرَةَ قَرَارِيطَ ثَمَنَ نَفْطٍ وَبَوَارِي لِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى فَعَجِبْتُ مِنْ ذٰلِكَ. ثُمَّ ٱسْتَوْزَرَ ٱلرَّشِيدُ بَعْدَ ٱلْبَرَامِكَةِ ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَكَانَ حَاجِبَهُ

وِزَارَةُ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ

فَكَانَ حَاجِبًا لِلْمَنْصُورِ وَٱلْمَهْدِيِّ وَٱلْهَادِي وَٱلرَّشِيدِ. فَلَمَّا نَكَبَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْبَرَامِكَةَ ٱسْتَوْزَرَهُ بَعْدَهُمْ. كَانَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ شَهْمًا خَبِيرًا بِأَحْوَالِ ٱلْمُلُوكِ وَآدَابِهِمْ. وَلَمَّا وَلِيَ ٱلْوِزَارَةَ تَهَوَّسَ بِٱلْأَدَبِ وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ فَحَصَّلَ مِنْهُ مَا أَرَادَ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ شُعَرَائِهِ ٱلْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ فَمِنْ شِعْرِهِ فِي آلِ ٱلرَّبِيعِ

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱضْطَرَمَ ٱلْوَغَى
وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمَا زَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ عَلَى وِزَارَتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ ٱلرَّشِيدُ بِطُوسَ. فَجَمَعَ ٱلْفَضْلُ ٱلْعَسْكَرَ وَمَا فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ. ٱنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ بِٱللهِ

بُويِعَ لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ هُوَ آخِرُ ٱلْخُلَفَاءِ(١). كَانَ ٱلْمُسْتَعْصِمُ رَجُلًا خَيِّرًا مُتَدَيِّنًا لَيِّنَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلْعَرِيكَةِ عَفِيفَ ٱللِّسَانِ طَاهِرَ ٱلذَّيْلِ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ وَكَتَبَ خَطًّا مَلِيحًا وَكَانَ سَهْلَ ٱلْأَخْلَاقِ وَكَانَ خَفِيفَ ٱلْوَطْأَةِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَضْعَفَ ٱلرَّأْيِ ضَعِيفَ ٱلْبَطْشِ قَلِيلَ ٱلْخِبْرَةِ بِأُمُورِ ٱلْمَمْلَكَةِ. مَطْمُوعًا فِيهِ غَيْرَ مَهِيبٍ فِي ٱلنُّفُوسِ وَلَا مُطَّلِعٍ عَلَى حَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ. وَكَانَ زَمَانُهُ يَنْقَضِي أَكْثَرُهُ بِسَمَاعِ ٱلْأَغَانِي وَٱلتَّفَرُّجِ عَلَى ٱلْمَسَاخِرَةِ. وَفِي بَعْضِ ٱلْأَوْقَاتِ

---

(١) الخلفاء هم الذين خلفوا محمد بن عبد الله نبي الاسلام وتولوا الامر من بعده بين العرب وكان في يدهم امر السياسة والدين معاً. وهم اولًا خلفاء المشرق وكانت دار خلافتهم مكة الى وفاة الامام علي بن ابي طالب. ثم الشام في دولة بني امية. ثم بغداد في دولة بني العباس. وكانت مدتهم جميعاً ٦٢٢ سنة وذلك من سنة ٦٣٦ للميلاد الى سنة ١٢٥٨

ثانياً خلفاء الاندلس واول من ولي الخلافة هنالك عبد الرحمن الاموي من ملوك الشام وذلك سنة ٦٥٧ وكانت مدتهم ٣٧٤ سنة اي من التاريخ المذكور الى سنة ١٠٣١

ثالثاً خلفاء مصر وهم الفاطميون واول من ولي الخلافة منهم عُبَيد الله من سلالة فاطمة بنت محمد وذلك سنة ٩٠٩ واستمرت خلافتهم ٢٦٢ سنة حتى اضمحلت سنة ١١٧١ على يد الملك صلاح الدين الايوبي

وكان تقليد الخلافة في صدر الاسلام بالمبايعة الى ان جاء معوية بن ابي سفيان الاموي في آخر القرن الاول فنسخ المبايعة وقرّر الخلافة في صلبهِ واستمرّ الحال على ذلك الى سنة ٩٣٥ حيث خلعهم امير الامراء عن امر السياسة. وبقيت الخلافة متداركة بين العرب الى ظهور السلطان سليم العثماني فاستلم الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس وذلك سنة ١٥١٦ فكانت مدة جميعهم ٨٨٠ سنة (بولبي)

يَجلِسُ بِخِزانَةِ ٱلكُتُبِ جُلوساً لَيسَ فيهِ كَبيرُ فائِدَةٍ . وَكانَ أَصحابُهُ مُستَولِينَ عَلَيهِ وَكُلُّهُم جُهّالٌ مِن أَرذالِ ٱلعَوامّ إِلّا وَزِيرَهُ مُؤَيَّدَ ٱلدِّينِ مُحَمَّدَ بنَ ٱلعَلقَمِيِّ . فَإِنَّهُ كانَ مِن أَعيانِ ٱلنّاسِ وَعُقَلاءِ ٱلرِّجالِ . وَكانَ مَكفُوفَ ٱليَدِ مَردُودَ ٱلقَولِ يَتَرَقَّبُ ٱلعَزلَ وَٱلقَبضَ صَباحَ مَساءَ . وَكانَت عادَةُ ٱلخُلَفاءِ أَكثَرِهِم أَن يَحبِسُوا أَولادَهُم وَأَقارِبَهُم وَبِذٰلِكَ جَرَت سُنَّتُهُم إِلى آخِرِ أَيّامِ ٱلمُستَنصِرِ . فَلَمّا وَلِيَ ٱلمُستَعصِمِ أَطلَقَ أَولادَهُ ٱلثَّلاثَةَ وَلَم يَحبِسهُم وَهُم ٱلأَمِيرُ ٱلكَبِيرُ أَبُو ٱلعَبّاسِ أَحمَدُ وَٱلعامَّةُ تُسَمِّيهِ أَبا بَكرٍ لَيسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّما سَمَّوهُ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَمّا نُهِبَ ٱلكَرخُ نُسِبَ ٱلأَمرُ فِي ذٰلِكَ إِلَيهِ . وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَشارَ بِذٰلِكَ وَٱلأَمِيرُ ٱلأَوسَطُ وَهُوَ أَبُو ٱلفَضائِلِ عَبدُ ٱلرَّحمانِ كانَ شَهماً خَرَجَ إِلَى بَينِ يَدَي ٱلسُّلطانِ هُولاكُو وَوَقَعَ كَلامُهُ بِمَوضِعِ ٱلإِستِحسانِ فِي ٱلحَضرَةِ ٱلسُّلطانِيَّةِ وَٱلأَمِيرُ ٱلأَصغَرُ أَبُو ٱلمَناقِبِ

حَدَّثَنِي صَفِيُّ ٱلدِّينِ عَبدُ ٱلمُؤمِنِ بنُ فاخِرِ ٱلأُرمَوِيُّ وَكانَ قَد صارَ فِي آخِرِ أَيّامِ ٱلمُستَعصِمِ مُقَرَّباً عِندَهُ وَمِن خَواصِّهِ . وَكانَ قَدِ ٱستَجَدَّ فِي آخِرِ أَيّامِهِ خِزانَةَ كُتُبٍ وَنَقَلَ إِلَيها مِن نَفائِسِ ٱلكُتُبِ وَسَلَّمَ مَفاتِيحَها إِلَى عَبدِ ٱلمُؤمِنِ . فَصارَ عَبدُ ٱلمُؤمِنِ يَجلِسُ بِبابِ ٱلخِزانَةِ يَنسَخُ لَهُ ما يُرِيدُ . وَإِذا خَطَرَ لِلخَلِيفَةِ ٱلجُلُوسُ فِي خِزانَةِ ٱلكُتُبِ جاءَ إِلَيها وَعَدَلَ عَنِ ٱلخِزانَةِ ٱلأُولَى ٱلَّتِي كانَت مُسامَتَةً

إِلَى ٱلشَّيْخِ صَدْرِ ٱلدِّينِ عَلِيِّ بْنِ ٱلنَّيَّارِ. قَالَ. أَعْنِي عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ:
كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَنْسَخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ
ٱلْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ
لِتَرُدَّ عَنْهَا ٱلْغُبَارَ. فَجَاءَ خُوَيْدِمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ
وَٱسْتَغْرَقَ فِي ٱلنَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي تِلْكَ ٱلْمِلْحَفَةِ ٱلْمَبْسُوطَةِ
عَلَى ٱلْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى ٱلْمَسْنَدِ. قَالَ وَأَنَا
مَشْغُولٌ بِٱلنَّسْخِ فَأَحْسَسْتُ بِوَطْءٍ فِي ٱلدِّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ ٱلْخَلِيفَةُ
وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِٱلْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ. فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعِجًا وَقَبَّلْتُ
ٱلْأَرْضَ فَقَالَ لِي: هٰذَا ٱلْخُوَيْدِمُ ٱلَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي هٰذِهِ
ٱلْمِلْحَفَةِ وَصَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى ٱلْمَسْنَدِ مَتَى هَجَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ
وَيَعْلَمَ أَنِّي قَدْ شَاهَدْتُهُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ تَنْفَطِرُ مَرَارَتُهُ مِنَ ٱلْخَوْفِ.
فَأَيْقِظْهُ أَنْتَ بِرِفْقٍ فَإِنِّي سَأَخْرُجُ إِلَى ٱلْبُسْتَانِ ثُمَّ أَعُودُ. قَالَ
وَخَرَجَ ٱلْخَلِيفَةُ فَدَخَلْتُ إِلَى ٱلْخُوَيْدِمِ وَأَيْقَظْتُهُ فَٱنْتَبَهَ ثُمَّ أَصْلَحْنَا
ٱلْمَرْتَبَةَ ثُمَّ دَخَلَ ٱلْخَلِيفَةُ

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَغْدَادَ حَدَّثْتُ أَنَّ ٱلشَّيْخَ صَدْرَ ٱلدِّينِ بْنَ
ٱلنَّيَّارِ شَيْخَ ٱلْخَلِيفَةِ قَالَ: دَخَلْتُ مَرَّةً إِلَى خِزَانَةِ ٱلْكُتُبِ عَلَى عَادَتِي
وَفِي كُمِّي مِنْدِيلٌ فِيهِ رِقَاعٌ كَثِيرَةٌ لِجَمَاعَةٍ مِنْ أَرْبَابِ ٱلْحَوَائِجِ
فَطَرَحْتُ ٱلْمِنْدِيلَ وَفِيهِ ٱلرِّقَاعُ فِي مَوْضِعِي ثُمَّ قُمْتُ لِبَعْضِ شَأْنِي.
فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى ٱلْخِزَانَةِ بَعْدَ سَاعَةٍ حَمَلْتُ ٱلرِّقَاعَ مِنَ ٱلْمِنْدِيلِ حَتَّى

أتأملها وأقدم منها المهم فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة بالإجابة إلى جميع ما فيها. فعلمت أن الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامي فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقع على جميعها

والمستعصم هو آخر خلفاء الدولة العباسية ببغداد ولم يجر في أيام المستعصم شيء يؤثر سوى نهب الكرخ وبئس الأثر ذلك. وفي آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو فلم يحرك ذلك منه عزماً ولا نبه منه همة ولا أحدث عنده هماً. وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال. ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك ولا يعرف هذه الدولة يسر الله إحسانها وأعلى شأنها حق المعرفة. وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاستعداد وهو لا يزداد إلا غفولاً. وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر ولا هناك محذور وأن الوزير إنما يعظم هذا لينفق سوقه ولتبرز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه. وما زالت غفلة الخليفة تنمي ويقظة الجانب الآخر تتضاعف حتى وصل العسكر السلطاني إلى همذان وأقام بها مدة. ثم تواترت الرسل السلطانية إلى الديوان المستعصمي فوقع التعيين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدار

وَهُوَ شَرَفُ ٱلدِّينِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْجُوزِيِّ فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَى خِدْمَةِ ٱلدَّرْكَاهِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ بِهَمَذَانَ . فَلَمَّا وَصَلَ وَسَمِعَ جَوَابَهُ عَلِمَ أَنَّهُ جَوَابُ مُغَالَطَةٍ وَمُدَافَعَةٍ

• فَحِينَئِذٍ وَقَعَ ٱلشُّرُوعُ فِي قَصْدِ بَغْدَادَ وَبَثِّ ٱلْعَسَاكِرِ إِلَيْهَا . فَتَوَجَّهَ عَسْكَرٌ كَثِيفٌ مِنَ ٱلْمُغُولِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ بَاجُو إِلَى تَكْرِيتَ لِيَعْبُرُوا مِنْ هُنَاكَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ وَيَقْصِدُوا بَغْدَادَ مِنْ غَرْبِيِّهَا وَيَقْصِدَهَا ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ مِنْ شَرْقِيِّهَا . فَلَمَّا عَبَرَ عَسْكَرُ بَاجُو مِنْ تَكْرِيتَ وَٱنْحَدَرَ إِلَى أَعْمَالِ بَغْدَادَ أَجْفَلَ ٱلنَّاسُ مِنْ دُجَيْلٍ وَٱلْإِسْحَاقِيِّ وَنَهْرِ مَلِكٍ وَنَهْرِ عِيسَى وَدَخَلُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ حَتَّى كَانَ ٱلرَّجُلُ أَوِ ٱلْمَرْأَةُ يَقْذِفُ بِنَفْسِهِ فِي ٱلْمَاءِ وَكَانَ ٱلْمَلَّاحُ إِذَا عَبَّرَ أَحَدًا فِي سَفِينَةٍ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ يَأْخُذُ أُجْرَتَهُ سِوَارًا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ طِرَازًا مِنْ زَرْكَشٍ أَوْ عِدَّةً مِنَ ٱلدَّنَانِيرِ . فَلَمَّا وَصَلَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ إِلَى دُجَيْلٍ وَهُوَ يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ ٱلْخَلِيفَةِ صُحْبَةَ مُقَدَّمِ ٱلْجُيُوشِ مُجَاهِدِ ٱلدِّينِ أَيْبَكَ ٱلدُّوَيْدَارِ وَكَانَ عَسْكَرًا فِي غَايَةِ ٱلْقِلَّةِ . فَٱلْتَقَوْا بِٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْبَلَدِ فَكَانَتِ ٱلْغَلَبَةُ فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ لِعَسْكَرِ ٱلْخَلِيفَةِ . ثُمَّ كَانَتِ ٱلْكَرَّةُ لِلْعَسْكَرِ ٱلسُّلْطَانِيِّ فَأَبَادُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا . وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ نَهْرٌ فَتَحُوهُ فِي طُولِ ٱللَّيْلِ فَكَثُرَتِ ٱلْوُحُولُ فِي طَرِيقِ ٱلْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَمَى نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ أَوْ

مَنْ دَخَلَ ٱلْبَرِّيَّةَ وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى ٱلشَّأْمِ . وَنَجَا ٱلدَّوِيدَارُ فِي جُمَيْعَةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَسَاقَ بَاجُو حَتَّى دَخَلَ ٱلْبَلَدَ مِنْ جَانِبِهِ ٱلْغَرْبِيِّ وَوَقَفَ بِعَسَاكِرِهِ مُحَاذِيَ ٱلتَّاجِ وَجَاسَتْ عَسَاكِرُهُ خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَأَقَامَ مُحَاذِيَ ٱلتَّاجِ أَيَّامًا

أَمَّا حَالُ ٱلْعَسْكَرِ ٱلسُّلْطَانِيِّ فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ رَابِعِ مُحَرَّمٍ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ثَارَتْ غَبَرَةٌ عَظِيمَةٌ شَرْقِيَّ بَغْدَادَ عَلَى دَرْبِ يَعْقُوبَ بِحَيْثُ عَمَّتِ ٱلْبَلَدَ فَٱنْزَعَجَ ٱلنَّاسُ مِنْ ذٰلِكَ وَصَعِدُوا إِلَى أَعَالِي ٱلسُّطُوحِ وَٱلْمَنَابِرِ يَتَشَوَّفُونَ . فَٱنْكَشَفَتِ ٱلْغَبَرَةُ عَنْ عَسَاكِرِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُيُولِهِ وَلَفِيفِهِ وَكُرَاعِهِ وَقَدْ طَبَّقَ وَجْهَ ٱلْأَرْضِ وَأَحَاطَ بِبَغْدَادَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا . ثُمَّ شَرَعُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ ٱلْحِصَارِ وَشَرَعَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلْخَلِيفِيُّ فِي ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْمُقَاوَمَةِ إِلَى يَوْمِ تَاسِعِ وَعِشْرِي مُحَرَّمٍ فَلَمْ يَشْعُرِ ٱلنَّاسُ إِلَّا وَرَايَاتُ ٱلْمَغُولِ ظَاهِرَةٌ عَلَى سُورِ بَغْدَادَ مِنْ بُرْجٍ يُسَمَّى بُرْجَ ٱلْعَجَمِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ بَغْدَادَ يُقَالُ بَابُ كَلْوَاذَى . وَكَانَ هٰذَا ٱلْبُرْجُ أَقْصَرَ أَبْرَاجِ ٱلسُّورِ . وَتَقَحَّمَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ هُجُومًا وَدُخُولًا فَجَرَى مِنَ ٱلْقَتْلِ ٱلذَّرِيعِ وَٱلنَّهْبِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلتَّهْتِيكِ ٱلْبَلِيغِ مَا يَعْظُمُ سَمَاعُهُ جُمْلَةً . فَمَا ٱلظَّنُّ بِتَفَاصِيلِهِ وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ ظَنًّا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ ٱلْخَبَرِ . وَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ بِخُرُوجِ ٱلْخَلِيفَةِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ إِلَيْهِ . فَخَرَجُوا فَحَضَرَ ٱلْخَلِيفَةُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلذِّرْكَاهِ . فَيُقَالُ إِنَّهُ عُوتِبَ وَوُبِّخَ بِمَا مَعْنَاهُ نِسْبَةُ ٱلْعَجْزِ وَٱلتَّفْرِيطِ

وَٱلْمغول إِلَيْهِ . ثُمَّ أُوصِلَ إِلَى ٱلْيَاسَا (١) وَوَلَدَاهُ ٱلْأَكْبَرُ وَٱلْأَوْسَطُ . وَأَمَّا بَنَاتُهُ فَأُسِرْنَ ثُمَّ ٱسْتُشْهِدَ ٱلْمُسْتَعْصِمُ فِي رَابِعِ صَفَرَ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ

إِنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ بِٱللَّهِ

---

(١) الياسا هي قانون الجنايات في دولة المغول

مِنْ كِتَابِ
ٱلْمَوَاعِظِ وَٱلِاعْتِبَارِ فِي ذِكْرِ ٱلْخِطَطِ وَٱلْآثَارِ
لِتَقِيّ ٱلدِّينِ ٱلْمَقْرِزِي
ذِكْرُ خِلَافَةِ ٱلْحَاكِمِ بِأَمْرِ ٱللهِ (١)

أَلْحَاكِمُ بِأَمْرِ ٱللهِ أَبُو عَلِيٍّ مَنْصُورُ بْنُ ٱلْعَزِيزِ نِزَارِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدٍّ وُلِدَ بِٱلْقَصْرِ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ ٱلْمُعِزِّيَّةِ لَيْلَةَ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّالِثِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ وَٱلطَّالِعُ مِنْ بُرْجِ ٱلسَّرَطَانِ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً . وَسُلِّمَ عَلَيْهِ بِٱلْخِلَافَةِ فِي مَدِينَةِ بُلْبَيْس بَعْدَ ٱلظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ ٱلثُّلَاثَاءِ ثَامِنِ وَعِشْرِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ . وَسَارَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فِي يَوْمِ ٱلْأَرْبِعَاءِ بِسَائِرِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْعَزِيزُ فِي قُبَّةٍ عَلَى نَاقَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَعَلَى ٱلْحَاكِمِ دُرَّاعَةٌ مُصْمَتٍ وَعِمَامَةٌ فِيهَا ٱلْجَوْهَرُ وَبِيَدِهِ رُمْحٌ وَقَدْ تَقَلَّدَ ٱلسَّيْفَ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ مَعَ ٱلْعَسَاكِرِ شَيْءٌ وَدَخَلَ ٱلْقَصْرَ قَبْلَ صَلوةِ ٱلْمَغْرِبِ . وَأَخَذَ فِي

---

(١) الحاكم بامر الله هو احد الخلفاء الفاطميين بمصر ولي العهد بعد ابيه سنة ٩٩٦ وكان شرسًا جائرًا سفَّاك دماء واضطهد اليهود والنصارى وامر بقلع الكرم . وكانت وفاته سنة ١٠٢١ قتلًا بيد فتىً من المسلمين . وكان يدّعي انهُ من سلالة علي ابن ابي طالب ويدعو نفسهُ امير المؤمنين والقائم مقام الله وعدل عن دين محمد واقام دينًا جديدًا وهو دين الدروز المقيمين الآن في سورية ومصر واصحابهُ يزعمون انهُ نقل الى السماء (بولي)

جهازِ أبيهِ ٱلعزيزِ بِٱللهِ ودفنهُ. ثمَّ بكّرَ سائرُ أهلِ ٱلدَّولةِ إلى ٱلقصرِ يومَ ٱلخميسِ وقد نُصبَ للحاكمِ سريرٌ من ذهبٍ عليهِ مرتبةٌ مُذهبةٌ في ٱلإيوانِ ٱلكبيرِ. وخرجَ من قصرهِ راكبًا وعليهِ معمّةُ ٱلجوهرِ وٱلنَّاسُ وقوفٌ في صحنِ ٱلإيوانِ. فقبَّلوا لهُ ٱلأرضَ ومشوا بينَ يديهِ حتَّى جلسَ على ٱلسَّريرِ. فوقفَ من رسمهُ ٱلوقوفُ وجلسَ من لهُ عادةٌ أن يجلسَ وسلَّمَ ٱلجميعُ عليهِ بٱلإمامةِ وٱللَّقبِ ٱلَّذي ٱختيرَ لهُ وهوَ ٱلحاكمُ بأمرِ ٱللهِ وكانَ سنُّهُ يومئذٍ إحدى عشرةَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ وستَّةَ أيَّامٍ

فجعلَ أبا محمَّدٍ ٱلحسنَ بنَ عمَّارٍ ٱلكتاميَّ واسطةً ولقَّبهُ بأمينِ ٱلدَّولةِ وأسقطَ مكوسًا كانت بٱلسَّاحلِ وردَّ إلى ٱلحسينِ بنِ جوهرٍ ٱلقائدِ ٱلبريدَ وٱلإنشاءَ. فكانَ يخلفهُ ٱبنُ سورينَ وأقرَّ عيسى بنَ نسطورسَ على ديوانِ ٱلخاصِّ وقلَّدَ سليمانَ بنَ جعفرِ بنِ فلاحٍ ٱلشَّامَ. فخرجَ بنجوتكينُ بدمشقَ وسارَ منها لمدافعةِ سليمانَ بنِ جعفرِ بنِ فلاحٍ. فبلغَ ٱلرَّملةَ وٱنضمَّ إليهِ ٱبنُ ٱلجرَّاحِ ٱلطَّائيُّ في كثيرٍ منَ ٱلعربِ وواقعَ ٱبنَ فلاحٍ فٱنهزمَ وفرَّ. ثمَّ أُسرَ وحُملَ إلى ٱلقاهرةِ فأُكرمَ. وٱختلفَ أهلُ ٱلدَّولةِ على ٱبنِ عمَّارٍ ووقعت حروبٌ آلت إلى صرفهِ عنِ ٱلوساطةِ ولهُ في ٱلنَّظرِ أحدَ عشرَ شهرًا غيرَ خمسةِ أيَّامٍ. فلزمَ دارهُ وأُطلقت لهُ رسومٌ وجراياتٌ. وأُقيمَ ٱلطَّواشي برجوانُ ٱلصَّقلبيُّ مكانهُ في ٱلوساطةِ لثلاثٍ بقينَ من رمضانَ

سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلثِمِائَةٍ. فَجَعَلَ كَاتِبَهُ فَهْدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ يُوَقِّعُ عَنْهُ وَلَقَّبَهُ بِالرَّئِيسِ وَصَرَفَ سُلَيْمَانَ بْنَ فَلَاحٍ عَنِ الشَّامِ بِجَيْشِ بْنِ الصَّمْصَامَةِ. وَقَلَّدَ فَحْلَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْكُتَامِيَّ مَدِينَةَ صُورَ. وَقَلَّدَ يَانِسَ الْخَادِمَ بَرْقَةَ وَمَيْسُورًا الْخَادِمَ طَرَابُلُسَ وَيُمْنًا الْخَادِمَ غَزَّةَ وَعَسْقَلَانَ. فَوَاقَعَ جَيْشَ الرُّومِ عَلَى فَامِيَةَ وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافِ رَجُلٍ وَغَزَا إِلَى أَنْ دَخَلَ مَرْعَشَ. وَقَلَّدَ وَظِيفَةَ قَضَاءِ الْقُضَاةِ أَبَا عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنَ ابْنَ عَلِيِّ بْنِ النُّعْمَانِ فِي صَفَرَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ بَعْدَ مَوْتِ قَاضِي الْقُضَاةِ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ. وَقَتَلَ الْأُسْتَاذَ بَرْجَوَانَ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلثِمِائَةٍ وَلَهُ فِي النَّظَرِ سَنَتَانِ وَثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ

وَرَدَّ النَّظَرَ فِي أُمُورِ النَّاسِ وَتَدْبِيرِ الْمَمْلَكَةِ وَالتَّوْقِيعَاتِ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ وَلُقِّبَ بِقَائِدِ الْقُوَّادِ فَخَلَفَهُ الرَّئِيسُ فَهْدٌ. وَاتَّخَذَ الْحَاكِمُ مَجْلِسًا فِي اللَّيْلِ يَحْضُرُ فِيهِ عِدَّةٌ مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ أَبْطَلَهُ وَمَاتَ جَيْشُ بْنُ الصَّمْصَامَةِ فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ تِسْعِينَ وَثَلثِمِائَةٍ. فَوَصَلَ ابْنُهُ بِتَرِكَتِهِ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَعَهُ دَرْجٌ بِخَطِّ أَبِيهِ فِيهِ وَصِيَّتُهُ وَثَبَتٌ بِمَا خَلَّفَهُ مُفَصَّلًا. وَأَنَّ ذٰلِكَ جَمِيعَهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِهِ مِنْهُ دِرْهَمًا. وَكَانَ مَبْلَغُ ذٰلِكَ جَمِيعِهِ نَحْوَ الْمِائَتَيْنِ أَلْفَ دِينَارٍ مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ وَدَوَابَّ. قَدْ أَوْقَفَ جَمِيعَ ذٰلِكَ تَحْتَ الْقَصْرِ فَأَخَذَ الْحَاكِمُ الدَّرْجَ وَنَظَرَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ

إلى أولادِ جَيْشٍ وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ بِحَضْرَةِ وُجُوهِ الدَّوْلَةِ: قَدْ وَقَفْتُ عَلَى وَصِيَّةِ أَبِيكُمْ رَحِمَهُ اللهُ وَمَا وَصَّى بِهِ مِنْ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ، فَخُذُوهُ هَنِيئًا مُبَارَكًا لَكُمْ فِيهِ فَانْصَرَفُوا بِجَمِيعِ التَّرِكَةِ....

وَمَنَعَ النَّاسَ كَافَّةً مِنْ مُخَاطَبَتِهِ أَحَدٌ وَمُكَاتَبَتِهِ بِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحْدَهُ. وَأُبِيحَ دَمُ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ. وَفِي شَوَّالٍ قَتَلَ ابْنَ عَمَّارٍ وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَاصَلَ الْحَاكِمُ الرُّكُوبَ فِي اللَّيْلِ كُلَّ لَيْلَةٍ. وَكَانَ يَشُقُّ الشَّوَارِعَ وَالْأَزِقَّةَ وَبَالَغَ النَّاسُ فِي الْوَقِيدِ وَالزِّينَةِ وَأَنْفَقُوا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ عَلَى الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْغِنَاءِ وَاللَّهْوِ وَكَثُرَ تَفَرُّجُهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجُوا فِيهِ عَنِ الْحَدِّ فَمَنَعَ النِّسَاءَ مِنَ الْخُرُوجِ فِي اللَّيْلِ. ثُمَّ مَنَعَ الرِّجَالَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ....

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ أَمَرَ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ بِشَدِّ الزَّنَانِيرِ وَلُبْسِ الْغِيَارِ. وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْ أَكْلِ الْمُلُوخِيَا وَالْجِرْجِيرِ وَالْمُتَوَكِّلِيَّةِ وَالدَّلِينَسِ وَذَبْحِ الْأَبْقَارِ السَّالِمَةِ مِنَ الْعَاهَةِ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَضْحِيَةِ. وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ الْفُقَّاعِ وَعَمَلِهِ الْبَتَّةَ وَأَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ وَأَنْ لَا تَكْشِفَ امْرَأَةٌ وَجْهَهَا فِي طَرِيقٍ وَلَا خَلْفَ جَنَازَةٍ وَلَا تَتَبَرَّجَ وَلَا يُبَاعَ شَيْءٌ مِنَ السَّمَكِ بِغَيْرِ قِشْرٍ وَلَا يَصْطَادَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّيَّادِينَ. وَتَتَبَّعَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَشَدَّدَ فِيهِ وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ مِمَّا ذُكِرَ. وَخَرَجَتِ

ٱلْعَسَاكِرُ لِقِتَالِ بَنِي قُرَّةَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبُحَيْرَةِ . وَكَتَبَ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْمَسَاجِدِ وَعَلَى ٱلْجَامِعِ بِمِصْرَ وَعَلَى أَبْوَابِ ٱلْحَوَانِيتِ وَٱلْحُجَرِ وَٱلْمَقَابِرِ سَبَّ ٱلسَّلَفِ (١) وَلَعْنَهُمْ وَأَكْرَهَ ٱلنَّاسَ عَلَى نَقْشِ ذٰلِكَ وَكِتَابَتِهِ بِٱلْأَصْبَاغِ فِي سَائِرِ ٱلْمَوَاضِعِ . وَأَقْبَلَ ٱلنَّاسُ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّوَاحِي فَدَخَلُوا فِي ٱلدَّعْوَةِ وَجُعِلَ لَهُمْ يَوْمَانِ فِي ٱلْأُسْبُوعِ وَكَثُرَ ٱلِٱزْدِحَامُ عَلَى ذٰلِكَ وَمَاتَ فِيهِ جَمَاعَةٌ

وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْخُرُوجِ بَعْدَ ٱلْمَغْرِبِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَحَدٌ بِهَا لِبَيْعٍ وَلَا شِرَاءٍ . فَخَلَتِ ٱلطُّرُقُ مِنَ ٱلْمَارَّةِ وَكُسِرَتْ أَوَانِي ٱلْخُمُورِ وَأُرِيقَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأَمَاكِنِ . وَٱشْتَدَّ خَوْفُ ٱلنَّاسِ بِأَسْرِهِمْ وَقَوِيَتِ ٱلشَّنَاعَاتُ وَزَادَ ٱلِٱضْطِرَابُ فَٱجْتَمَعَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ تَحْتَ ٱلْقَصْرِ وَضَجُّوا يَسْأَلُونَ ٱلْعَفْوَ فَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِجَمِيعِ ٱلطَّوَائِفِ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْبَاعَةِ وَٱلرَّعِيَّةِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ ٱلْكِلَابِ فَقُتِلَ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى حَتَّى فُقِدَتْ . وَفُتِحَتْ دَارُ ٱلْحِكْمَةِ بِٱلْقَاهِرَةِ وَحُمِلَ إِلَيْهَا ٱلْكُتُبُ وَدَخَلَ إِلَيْهَا ٱلنَّاسُ وَٱشْتَدَّ ٱلطَّلَبُ عَلَى ٱلرِّكَابِيَّةِ ٱلْمُسْتَخْدَمِينَ فِي ٱلرِّكَابِ وَقَتَلَ مِنْهُمْ كَثِيرًا . ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ وَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانَاتٍ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ كَافَّةً مِنَ ٱلدُّخُولِ مِنْ بَابِ ٱلْقَاهِرَةِ وَهُمْ رُكَّابٌ . وَمَنَعَ ٱلْمُكَارِينَ أَنْ يَدْخُلُوا

---

(١) اسم السلف يطلق على ما ذهب اليه الائمة على عايشة زوجة محمد وابي بكر وعمر وعثمان وطلحة وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

بِحَمِيرِهِمْ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْمَشْيِ مُلَاصِقَ ٱلْقَصْرِ. وَقُتِلَ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ حُسَيْنُ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ وَأُحْرِقَ بِٱلنَّارِ. وَقُتِلَ عَدَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ كَثِيرٌ ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ خَرَجَ أَبُو رَكْوَةَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ وَٱدَّعَى أَنَّهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ. فَقَامَ بِأَمْرِهِ بَنُو قُرَّةَ لِكَثْرَةِ مَا أَوْقَعَ بِهِمِ ٱلْحَاكِمُ وَبَايَعُوهُ وَٱسْتَجَابَ لَهُ لَوَاتَةُ وَمِزَاتَةُ وَزَنَاتَةُ وَأَخَذَ بَرْقَةَ وَهَزَمَ جُيُوشَ ٱلْحَاكِمِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَغَنِمَ مَا مَعَهُمْ. فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ ٱلْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ وَوَاقَعَهُ فَٱنْهَزَمَ مِنْهُ فَضْلٌ وَٱشْتَدَّ ٱلِٱضْطِرَابُ بِمِصْرَ وَتَزَايَدَتِ ٱلْأَسْعَارُ. وَٱشْتَدَّ ٱلِٱسْتِعْدَادُ لِمُحَارَبَةِ أَبِي رَكْوَةَ وَنَزَلَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِٱلْجِيزَةِ. وَسَارَ أَبُو رَكْوَةَ فَوَاقَعَهُ ٱلْقَائِدُ فَضْلٌ وَقُتِلَ عِدَّةٌ مِمَّنْ مَعَهُ. فَعَظُمَ ٱلْأَمْرُ وَٱشْتَدَّ ٱلْخَوْفُ وَخَرَجَ ٱلنَّاسُ فَبَاتُوا فِي ٱلشَّوَارِعِ خَوْفًا مِنْ هُجُومِ عَسَاكِرِ أَبِي رَكْوَةَ. وَٱسْتَمَرَّتِ ٱلْحُرُوبُ فَٱنْهَزَمَ أَبُو رَكْوَةَ فِي ثَالِثِ ذِي ٱلْحِجَّةِ عَلَى ٱلْفَيُّومِ. وَتَبِعَهُ ٱلْقَائِدُ فَضْلٌ بَعْدَ أَنْ بَعَثَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ سِتَّةَ آلَافِ رَأْسٍ وَمِائَةَ أَسِيرٍ إِلَى أَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ فِي بِلَادِ ٱلنُّوبَةِ. وَأُحْضِرَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَقُتِلَ بِهَا وَخُلِعَ عَلَى ٱلْقَائِدِ فَضْلٍ وَسُيِّرَتِ ٱلْبَشَائِرُ بِقَتْلِهِ فِي ٱلْأَعْمَالِ

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ أَمَرَ بِمَحْوِ سَبِّ ٱلسَّلَفِ فَمُحِيَ سَائِرُ مَا كُتِبَ مِنْ ذٰلِكَ وَغَلَتِ ٱلْأَسْعَارُ لِنَقْصِ ٱلنِّيلِ. فَإِنَّهُ بَلَغَ سِتَّةَ عَشَرَ أُصْبُعًا مِنْ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ثُمَّ نَقَصَ وَمَاتَ مَنْجُوتَكِينُ فِي ذِي

ٱلحجة وٱشتد ٱلغلاء في ثمان وتسعين وولي علي ٱبن فلاح دمشق. وقبض جميع ما هو محبس على ٱلكنائس. وجعل في ٱلديوان وأحرق عدة صلبان على باب ٱلجامع بمصر وكتب إلى سائر ٱلأعمال بذلك. وفي سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد ٱلفارقي في وظيفة قضاء ٱلقضاة وتسلم كتب ٱلدعوة ٱلتي تقرأ بٱلقصر على ٱلأولياء وصرف عبد ٱلعزيز بن ٱلنعمان عن ذلك....

وتوقفت زيادة ٱلنيل وٱستسقى ٱلناس مرتين وأمر بإبطال عدة مكوس وتعذر وجود ٱلخبز لغلائه وقلته. وفتح ٱلخليج في رابع توت وٱلماء على خمس عشرة ذراعا فٱشتد ٱلغلاء. وفي تاسع محرم وهو نصف توت نقص ماء ٱلنيل ولم يوف ست عشرة ذراعا. فمنع ٱلناس كافة من ٱلتظاهر بٱلغناء ومن ركوب ٱلبحر للتفرج. ومنع من بيع ٱلمسكرات ومنع كافة من ٱلخروج قبل ٱلفجر وبعد ٱلعشاء إلى ٱلطرقات. وٱشتد ٱلأمر على ٱلكافة لشدة ما داخلهم من ٱلخوف مع شدة ٱلغلاء وتزايد ٱلأمراض في ٱلناس وٱلموت....

وتزايدت ٱلأمراض وكثر ٱلموت وعزت ٱلأدوية وأعيدت ٱلمكوس ٱلتي رفعت وهدمت كنائس كانت بطريق ٱلمقس. وهدمت كنيسة بحارة ٱلروم من ٱلقاهرة ونهب ما فيها وقتل كثير من ٱلخدام وٱلكتاب ومن ٱلصقالبة بعد ما قطعت أيدي

بَعْضِهِمْ مِنَ ٱلْكُتَّابِ بِٱلسَّاطُورِ عَلَى خَشَبَةٍ مِنْ وَسَطِ ٱلذِّرَاعِ وَقُتِلَ ٱلْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي ذِي ٱلْقَعْدَةِ. وَفِي حَادِي عَشَرَ صَفَرٍ صُرِفَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلرُّوذَبَارِيُّ وَقُرِّرَ مَكَانَهُ ٱبْنُ عَبْدُونَ ٱلنَّصْرَانِيُّ ٱلْكَاتِبُ وَلُقِّبَ بِٱلْكَافِي. فَوَقَّعَ عَنِ ٱلْحَاكِمِ وَنَظَرَ. وَكَتَبَ بِهَدْمِ كَنِيسَةِ ٱلْقُمَامَةِ وَجَدَّدَ دِيوَانًا يُقَالُ لَهُ ٱلدِّيوَانُ ٱلْمُفْرَدُ بِرَسْمِ مَنْ قُبِضَ مَالُهُ مِنَ ٱلْمَقْتُولِينَ وَغَيْرِهِمْ. وَكَثُرَتِ ٱلْأَمْرَاضُ وَعَزَّتِ ٱلْأَدْوِيَةُ وَشُهِرَ جَمَاعَةٌ وُجِدَ عِنْدَهُمْ فُقَّاعٌ وَمُلُوخِيَا وَدَلِينَسٌ وَتُرْمُسٌ وَضُرِبُوا وَهُدِمَ دَيْرُ ٱلْقَصْرِ وَٱشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُودِ فِي إِلْزَامِهِمْ لُبْسَ ٱلْغِيَارِ وَكَتَبَ. بِإِبْطَالِ أَخْذِ ٱلْخُمْسِ وَٱلنَّجَاوَى وَٱلْفِطْرَةِ وَفَرَّ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَأَوْلَادُهُ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ. وَفَرَّ أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ ٱلْمَغْرِبِيِّ. وَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِعِدَّةِ طَوَائِفَ مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَقُطِعَتْ قِرَاءَةُ مَجَالِسِ ٱلْحِكْمَةِ بِٱلْقَصْرِ. وَوَقَعَ ٱلتَّشْدِيدُ فِي ٱلْمَنْعِ مِنَ ٱلْمُسْكِرَاتِ وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُدَّامِ وَٱلْفَرَّاشِينَ وَقُتِلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلرُّوذَبَارِيُّ فِي شَوَّالٍ

وَفِي رَابِعِ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ صُرِفَ ٱلْكَافِي بْنُ عَبْدُونَ عَنِ ٱلنَّظَرِ وَٱلتَّوْقِيعِ وَقُرِّرَ بَدَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْقَشُورِيُّ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلسِّفَارَةِ. وَحَضَرَ حُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ ثُمَّ صُرِفَ ٱبْنُ ٱلْقَشُورِيِّ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ مِنِ ٱسْتِقْرَارِهِ وَضُرِبَ عُنُقُهُ. وَقُرِّرَ بَدَلَهُ زُرْعَةُ بْنُ

عِيسَى بْنِ نَسطُورَسَ ٱلْكَاتِبُ ٱلنَّصرَانِيُّ وَلُقِّبَ بِٱلشَّافِي . وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ رُكُوبِ ٱلْمَرَاكِبِ فِي ٱلْخَلِيجِ وَسُدَّتْ أَبْوَابُ ٱلدُّورِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْخَلِيجِ وَٱلطَّاقَاتُ . وَأُضِيفَ إِلَى قَاضِي ٱلْقُضَاةِ مَالِكِ بْنِ سَعِيدٍ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَظَالِمِ . وَأُعِيدَتْ مَجَالِسُ ٱلْحِكْمَةِ وَأُخِذَ مَالُ ٱلنَّجْوَى وَقُتِلَ ٱبْنُ عَبْدُونَ وَقُبِضَ مَالُهُ . وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ وَشُهِرُوا مِنْ أَجْلِ بَيْعِهِمِ ٱلْمُلُوخِيَا وَٱلسَّمَكَ ٱلَّذِي لَا قِشْرَ لَهُ وَبِسَبَبِ بَيْعِ ٱلنَّبِيذِ . وَقُتِلَ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ فِي جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأُحِيطَ بِأَمْوَالِهِمَا وَأُبْطِلَتْ عِدَّةُ مُكُوسٍ . وَمُنِعَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْغِنَاءِ وَٱللَّهْوِ وَمِنْ بَيْعِ ٱلْمُغَنِّيَاتِ وَمِنَ ٱلِٱجْتِمَاعِ بِٱلصَّحْرَاءِ . وَفِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ خَلَعَ حَسَّانُ بْنُ مُفَرِّجِ بْنِ دَغْفَلِ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ طَاعَةَ ٱلْحَاكِمِ وَأَقَامَ أَبَا ٱلْفُتُوحِ حُسَيْنَ ٱبْنَ جَعْفَرٍ ٱلْحَسَنِيَّ أَمِيرَ مَكَّةَ خَلِيفَةً وَبَايَعُوهُ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى مُبَايَعَتِهِ وَقَاتَلَ عَسَاكِرَ ٱلْحَاكِمِ

وَفِي سَنَةِ ٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مُنِعَ مِنْ بَيْعِ ٱلزَّبِيبِ وَكُتِبَ بِٱلْمَنْعِ مِنْ حَمْلِهِ وَأُلْقِيَ فِي بَحْرِ ٱلنِّيلِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَأُحْرِقَ مِنْهُ كَثِيرٌ . وَمُنِعَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ زِيَارَةِ ٱلْقُبُورِ فَلَمْ يُرَ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِٱلْمَقَابِرِ ٱمْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ . وَمُنِعَ مِنَ ٱلِٱجْتِمَاعِ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ لِلتَّفَرُّجِ وَمُنِعَ مِنْ بَيْعِ ٱلْعِنَبِ إِلَّا أَرْبَعَةَ أَرْطَالٍ فَمَا دُونَهَا . وَمُنِعَ مِنْ عَصِيرِهِ وَطُرِحَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَدِيسَ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَغُرِّقَ كَثِيرٌ مِنْهُ فِي ٱلنِّيلِ . وَمُنِعَ مِنْ حَمْلِهِ وَقُطِعَتْ كُرُومُ ٱلْجِيزَةِ كُلُّهَا وَسُيِّرَ إِلَى ٱلْجِهَاتِ بِذٰلِكَ

وَفِي سَنَةِ ثَلْثٍ وَأَرْبعمِائَةٍ غَـلَا ٱلسِّعْرُ وَٱزْدَحَمَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْخُبْزِ وَفِي ثَانِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا هَلَكَ عِيسَى بْنُ نَسْطُورَسَ. فَأَمَرَ ٱلنَّصَارَى بِلُبْسِ ٱلسَّوَادِ وَتَعْلِيقِ ٱلصُّلْبَانِ ٱلْخَشَبِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ ٱلصَّلِيبُ ذِرَاعًا فِي مِثْلِهَا وَزِنَتُهُ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ وَأَنْ يَكُونَ مَكْشُوفًا بِحَيْثُ يَرَاهُ ٱلنَّاسُ. وَمُنِعُوا مِنْ رُكُوبِ ٱلْخَيْـلِ وَأَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُمُ ٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ بِٱلسُّرُوجِ ٱلْخَشَبِ وَٱلسُّيُورِ ٱلسُّودِ بِغَيْرِ حِلْيَةٍ وَأَنْ يَشُدُّوا ٱلزَّنَانِيرَ وَلَا يَسْتَخْدِمُوا مُسْلِمًا وَلَا يَشْتَرُوا عَبْـدًا وَلَا أَمَةً وَتُتُبِّعَتْ آثَارُهُمْ فِي ذٰلِكَ فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ. وَقُرِّرَ حُسَـيْنُ بْنُ طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانُ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلتَّوْقِيعِ عَنِ ٱلْحَاكِمِ فِي تَاسِعِ وَعِشْرِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا وَلُقِّبَ بِأَمِـينِ ٱلْأُمَنَاءِ. وَنَقَشَ ٱلْحَاكِمُ عَلَى خَاتَمِهِ بِنَصْرِ ٱللهِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْوَلِيِّ يَنْتَصِرُ ٱلْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ. وَضُرِبَ جَمَاعَـةٌ بِسَبَبِ ٱللَّعِبِ بِٱلشِّطْرَنْجِ وَهُدِمَتِ ٱلْكَنَائِسُ وَأُخِذَ جَمِيعُ مَا فِيهَـا وَمَا لَهَا مِنَ ٱلرِّبَاعِ. وَكُتِبَ بِذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَعْمَـالِ فَهُدِمَتْ بِهَا وَفِيهَا لَحِقَ أَبُو ٱلْفُتُوحِ بِمَكَّةَ وَدَعَا لِلْحَاكِمِ وَضَرَبَ ٱلسِّكَّةَ بِٱسْمِهِ. وَأَمَرَ ٱلْحَاكِمُ أَنْ لَا يُقَبِّلَ أَحَدٌ لَهُ ٱلْأَرْضَ وَلَا يُقَبِّلَ رِكَابَهُ وَلَا يَدَهُ عِنْدَ ٱلسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي ٱلْمَوَاكِبِ. فَإِنَّ ٱلِٱنْحِنَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ لِمَخْـلُوقٍ مِنْ صَنِيعِ ٱلرُّومِ. وَأَنْ لَا يُزَادَ عَلَى قَوْلِهِمِ ٱلسَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِـينَ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَلَا يُصَلِّي عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي مُكَاتَبَتِهِ وَلَا مُخَاطَبَتِـهِ وَيُقْتَصَرَ فِي مُكَاتَبَتِهِ عَلَى سَلَامُ ٱللهِ وَتَحِيَّاتُهُ وَنَوَامِي بَرَكَاتِهِ عَلَى أَمِيرِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَيُدْعَى لَهُ بِمَا يَتَّفِقُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَقَطْ لَا غَيْرُ . فَلَمْ يَقُلِ ٱلْخُطَبَاءُ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ سِوَى ٱللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ٱلْمُصْطَفَى وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ٱلْمُرْتَضَى . ٱللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ أَفْضَلَ سَلَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ وَخَلِيفَتِكَ . وَمَنَعَ مِنْ ضَرْبِ ٱلطُّبُولِ وَٱلْأَبْوَاقِ حَوْلَ ٱلْقَصْرِ . فَصَارُوا يَطُوفُونَ بِغَيْرِ طَبْلٍ وَلَا بُوقٍ وَكَثُرَتْ إِنْعَامَاتُ ٱلْحَاكِمِ . فَتَوَقَّفَ أَمِينُ ٱلْأُمَنَاءِ حُسَيْنُ بْنُ طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانُ فِي إِمْضَائِهَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ بِخَطِّهِ بَعْدَ ٱلْبَسْمَلَةِ

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَّقِي ... إِلَّا إِلٰهِي وَلَهُ ٱلْفَضْلُ

جَدِّي نَبِيِّي وَإِمَامِي أَبِي ... وَدِينِيَ ٱلْإِخْلَاصُ وَٱلْعَدْلُ

أَلْمَالُ مَالُ ٱللّٰهِ وَٱلْخَلْقُ عِبَادُ ٱللّٰهِ وَنَحْنُ أُمَنَاؤُهُ فِي ٱلْأَرْضِ أَطْلِقْ أَرْزَاقَ ٱلنَّاسِ وَلَا تَقْطَعْهَا وَٱلسَّلَامُ . وَرَكِبَ ٱلْحَاكِمُ فِي يَوْمِ عِيدِ ٱلْفِطْرِ إِلَى ٱلْمُصَلَّى بِغَيْرِ زِينَةٍ وَلَا جَنَائِبَ وَلَا أُبَّهَةٍ سِوَى عَشَرَةِ أَفْرَاسٍ تُقَادُ بِسُرُوجٍ وَلُجُمٍ مُحَلَّاةٍ بِفِضَّةٍ خَفِيفَةٍ وَبُنُودٍ سَادِجَةٍ وَمِظَلَّةٍ بَيْضَاءَ بِغَيْرِ ذَهَبٍ وَعَلَيْهِ بَيَاضٌ بِغَيْرِ طِرَازٍ وَلَا ذَهَبٍ وَلَا جَوْهَرٍ فِي عِمَامَتِهِ وَلَمْ يُفْرَشِ ٱلْمِنْبَرُ . وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ سَبِّ ٱلسَّلَفِ وَضَرَبَ فِي ذٰلِكَ وَشَهَرَ وَصَلَّى صَلٰوةَ عِيدِ ٱلنَّحْرِ كَمَا صَلَّى صَلٰوةَ ٱلْفِطْرِ مِنْ غَيْرِ أُبَّهَةٍ وَنَحَرَ عَنْهُ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ بْنِ أَحْمَدَ

ٱلْمُهَلَّبِيَّ وَأَكْثَرَ ٱلْحَاكِمُ مِنَ ٱلرُّكُوبِ إِلَى ٱلصَّحْرَاءِ بِحِذَاءٍ فِي رِجْلَيْهِ وَفُوطَةٍ عَلَى رَأْسِهِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَلْزَمَ ٱلْيَهُودَ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ جَرَسٌ إِذَا دَخَلُوا إِلَى ٱلْحَمَّامِ وَأَنْ يَكُونَ عُنُقِ ٱلنَّصَارَى صُلْبَانٌ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلنُّجُومِ وَأُفْنِيَ ٱلْمُنَجِّمُونَ مِنَ ٱلطُّرُقَاتِ وَطُلِبُوا فَتَغَيَّبُوا وَنُفُوا . وَكَثُرَتْ هِبَاتُ ٱلْحَاكِمِ وَصَدَقَاتُهُ وَعِتْقُهُ . وَأَمَرَ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى بِٱلْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ ٱلرُّومِ وَغَيْرِهَا . وَأُقِيمَ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ وَلِيَّ ٱلْعَهْدِ وَأُمِرَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلسَّلَامِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَى ٱبْنِ عَمِّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَصَارَ يَجْلِسُ بِمَكَانٍ فِي ٱلْقَصْرِ . وَصَارَ ٱلْحَاكِمُ يَرْكَبُ بِدُرَّاعَةِ صُوفٍ بَيْضَاءَ وَيَتَعَمَّمُ بِفُوطَةٍ وَفِي رِجْلِهِ حِذَاءٌ عَرَبِيٌّ بِقِبَالَيْنِ وَعَبْدُ ٱلرَّحِيمِ يَتَوَلَّى ٱلنَّظَرَ فِي أُمُورِ ٱلدَّوْلَةِ كُلِّهَا . وَأَفْرَطَ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْعَطَاءِ وَرَدَّ مَا كَانَ أَخَذَ مِنَ ٱلضِّيَاعِ وَٱلْأَمْلَاكِ لِأَرْبَابِهَا

وَفِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْ أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْجَرْجَرَائِيِّ . وَكَانَ يَكْتُبُ لِلْقَائِدِ غَيْنٍ . ثُمَّ قُطِعَتْ يَدُ غَيْنٍ فَصَارَ مَقْطُوعَ ٱلْيَدَيْنِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ بَعْدَ قَطْعِ يَدَيْهِ بِآلَافٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلثِّيَابِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمَرَ بِقَطْعِ لِسَانِهِ فَقُطِعَ وَأَبْطَلَ عِدَّةَ مُكُوسٍ وَقَتَلَ ٱلْكِلَابَ كُلَّهَا وَأَكْثَرَ مِنَ ٱلرُّكُوبِ فِي ٱللَّيْلِ وَمَنَعَ ٱلنِّسَاءَ مِنَ ٱلْمَشْيِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ . فَلَمْ تُرَ ٱمْرَأَةٌ فِي طَرِيقٍ ٱلْبَتَّةَ وَأُغْلِقَتْ حَمَّامَاتُهُنَّ وَمَنَعَ

ٱلْأَسَاكِفَةَ مِنْ عَمَلِ خِفَافِهِنَّ وَتَعَطَّلَتْ حَوَانِيتُهُمْ وَٱشْتَدَّتِ ٱلْإِشَاعَةُ بِوُقُوعِ ٱلسَّيْفِ فِي ٱلنَّاسِ فَتَهَارَبُوا وَغُلِّقَتِ ٱلْأَسْوَاقُ فَلَمْ يُبَعْ شَيْءٌ وَدُعِيَ لِعَبْدِ ٱلرَّحِيمِ بْنِ إِلْيَاسَ عَلَى ٱلْمَنَابِرِ وَضُرِبَتِ ٱلسِّكَّةُ بِٱسْمِهِ بِوِلَايَةِ ٱلْعَهْدِ

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُتِلَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْفَارِقِيُّ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي قَضَاءِ ٱلْقُضَاةِ سِتَّ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةَ أَيَّامٍ وَبَلَغَ إِقْطَاعُهُ فِي ٱلسَّنَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَتَزَايَدَ رُكُوبُ ٱلْحَاكِمِ حَتَّى كَانَ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِدَّةَ مِرَارٍ وَٱشْتَرَى ٱلْحَمِيرَ وَرَكِبَهَا بَدَلَ ٱلْخَيْلِ وَفِي جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ مِنْهَا قَتَلَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانَ . فَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي ٱلْوَسَاطَةِ سَنَتَيْنِ وَشَهْرَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا . فَأَمَرَ أَصْحَابَ ٱلدَّوَاوِينِ بِلُزُومِ دَوَاوِينِهِمْ وَصَارَ ٱلْحَاكِمُ يَرْكَبُ حِمَارًا بِشَاشِيَةٍ مَكْشُوفَةٍ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ . ثُمَّ أَقَامَ عَبْدَ ٱلرَّحِيمِ بْنَ أَبِي ٱلسَّيِّدِ ٱلْكَاتِبَ وَأَخَاهُ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ ٱلْحُسَيْنَ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلسِّفَارَةِ وَأَقَرَّ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ ٱلْقُضَاةِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي ٱلْعَوَّامِ . وَخَرَجَ ٱلْحَاكِمُ عَنِ ٱلْحَدِّ فِي ٱلْعَطَاءِ حَتَّى أَقْطَعَ نَوَاتِيَةَ ٱلْمَرَاكِبِ وَٱلْمَشَاعِلِيَّةَ وَبَنِي قُرَّةَ . فِمَا أَقْطَعَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَٱلْبُحَيْرَةُ وَنَوَاحِيهَا . ثُمَّ قَتَلَ ٱبْنَيْ أَبِي ٱلسَّيِّدِ . وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِمَا ٱثْنَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا وَقَلَّدَ ٱلْوَسَاطَةَ فَضْلَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ . ثُمَّ قَتَلَهُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْخَامِسِ مِنْ وِلَايَتِهِ وَغَلَبَ بَنُو قُرَّةَ عَلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ

وَأَعْمَالِهَا. وَأَكْثَرَ ٱلْحَاكِمُ مِنَ ٱلرُّكُوبِ فِي يَوْمٍ سِتَّ مَرَّاتٍ مَرَّةً عَلَى فَرَسٍ وَمَرَّةً عَلَى حِمَارٍ وَمَرَّةً فِي مِحَفَّةٍ تُحْمَلُ عَلَى ٱلْأَعْنَاقِ وَمَرَّةً فِي عُشَارِيٍّ عَلَى ٱلنِّيلِ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ. وَأَكْثَرَ مِنْ إِقْطَاعِ ٱلْجُنْدِ وَٱلْعَبِيدِ ٱلْإِقْطَاعَاتِ. وَأَقَامَ ذَا ٱلرِّئَاسَتَيْنِ قُطْبَ ٱلدَّوْلَةِ أَبَا ٱلْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلسِّفَارَةِ وَوَلَّى عَبْدَ ٱلرَّحِيمِ بْنَ ٱلْيَاسَ دِمَشْقَ. فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَأَقَامَ فِيهَا شَهْرَيْنِ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ وَأَخَذُوهُ فِي صُنْدُوقٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى لَيْلَةِ عِيدِ ٱلْفِطْرِ وَأُخْرِجَ مِنْهَا

وَلَمَّا كَانَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فُقِدَ ٱلْحَاكِمُ وَقِيلَ إِنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ. وَكَانَ عُمْرُهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَشَهْرًا. وَكَانَ جَوَادًا سَفَّاكًا قَتَلَ عَدَدًا لَا يُحْصَوْنَ. وَكَانَتْ سِيرَتُهُ مِنْ أَعْجَبِ ٱلسِّيَرِ وَخُطِبَ لَهُ عَلَى مَنَابِرِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَإِفْرِيقِيَّةَ وَٱلْحِجَازِ. وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِعُلُومِ ٱلْأَوَائِلِ وَيَنْظُرُ فِي ٱلنُّجُومِ وَعَمِلَ رَصَدًا وَٱتَّخَذَ بَيْتًا فِي ٱلْمُقَطَّمِ يَنْقَطِعُ فِيهِ عَنِ ٱلنَّاسِ لِذَٰلِكَ وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَعْتَرِيهِ جَفَافٌ فِي دِمَاغِهِ فَلِذَٰلِكَ كَثُرَ تَنَاقُضُهُ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ كَانَتْ أَفْعَالُهُ لَا تُعَلَّلُ وَأَحْلَامُ وَسَاوِسِهِ لَا تُؤَوَّلُ

وَقَالَ ٱلْمسبَحِيُّ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْس عَشرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُبِضَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ ثَارَ بِٱلصَّعِيدِ ٱلْأَعْلَى فَأَقَرَّ أَنَّهُ قَتَلَ ٱلْحَاكِمَ بِأَمْرِ ٱللهِ فِي جُمْلَةِ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ تَفَرَّقُوا فِي ٱلْبِلَادِ وَأَظْهَرَ قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةِ رَأْسِ ٱلْحَاكِمِ وَقِطْعَةً مِنَ ٱلْفُوطَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ. فَقِيلَ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ: فَقَالَ غَيْرَةً لِلّٰهِ وَلِلْإِسْلَامِ: فَقِيلَ كَيْفَ قَتَلْتَهُ. فَأَخْرَجَ سِكِّينًا ضَرَبَ بِهَا فُؤَادَهُ وَقَتَلَ نَفْسَهُ وَقَالَ هٰكَذَا قَتَلْتُهُ. وَقُطِعَ رَأْسُهُ وَأُنْفِذَ بِهِ إِلَى ٱلْحَضْرَةِ مَعَ مَا وُجِدَ مَعَهُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلصَّحِيحُ فِي خَبَرِ قَتْلِ ٱلْحَاكِمِ لَا مَا يَحْكِيهِ ٱلْمَشَارِقَةُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ.

مِنْ ذِكْرِ ٱلْحَارَاتِ

عِبَارَةٌ تَتَعَلَّقُ بِفُتُوحَاتِ هفتكين وَٱنْكِسَارَاتِهِ

حَارَةُ ٱلدَّيْلَمِ عُرِفَتْ بِذٰلِكَ لِنُزُولِ ٱلدَّيْلَمِ ٱلْوَاصِلِينَ مَعَ هفتكين ٱلشَّرَابِيِّ حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ أَوْلَادُ مَوْلَاهُ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْبُوَيْهِيِّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ وَسَكَنُوا بِهَا فَعُرِفَتْ بِهِمْ.

• هفتكين وَيُقَالُ لَهُ ٱلْفتكين ٱلتُّرْكِيُّ ٱلشَّرَابِيُّ غُلَامُ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ تَرَقَّى فِي ٱلْخِدَمِ حَتَّى غَلَبَ فِي بَغْدَادَ عَلَى عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ. وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ فِي ٱلْحَرْبِ. فَلَمَّا سَلَدَتِ ٱلْأَتْرَاكُ مِنْ بَغْدَادَ لِحَرْبِ ٱلدَّيْلَمِ جَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ

ٱشتهر فيه هفتكين إلّا أنّ أصحابه ٱنهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فولّى بمن معه من ٱلأتراك وهم نحو ٱلأربعمائة . فسار على ٱلرّحبة وأخذ منها على ٱلبرّ إلى أن قرب من جوسية إحدى قرى ٱلشّام . وقد وقع في قلوب ٱلعربان منه مهابة . فخرج إليه ظالم بن مرهوب ٱلعقيلي من بعلبكّ وبعث إلى أبي محمود إبرهيم بن جعفر أمير دمشق من قبل ٱلخليفة ٱلمعزّ لدين ٱلله يعلمه بقدوم هفتكين من بغداد لإقامة ٱلخطبة ٱلعبّاسيّة وخوفه منه . فأنفذ إليه عسكرًا وسار إلى ناحية جوسية يريد هفتكين . وسار بشارة ٱلخادم من قبل أبي ٱلمعالي بن حمدان عونًا لهفتكين فردّ ظالم إلى بعلبكّ من غير حرب

وسار بشارة بهفتكين إلى حمص فحمل إليه أبو ٱلمعالي وتلقّاه وأكرمه وكان قد ثار بدمشق جماعة من أهل ٱلدّعارة وٱلفساد وحاربو عمّال ٱلسّلطان وٱشتدّ أمرهم وكان كبيرهم يعرف بٱبن ٱلماورد . فلمّا بلغهم خبر هفتكين بعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه ووعدوه بٱلقيام معه على عساكر ٱلمعزّ وإخراجهم من دمشق ليلي عليهم فوقع ذلك منه بٱلموافقة . وسار حتّى نزل ثنيّة ٱلعقاب لأيّام بقيت من شعبان سنة أربع وستّين وثلثمائة . فبلغ عسكر ٱلمعزّ خبر ٱلفرنج وأنّهم قد قصدوا طرابلس فساروا بأجمعهم إلى لقاء ٱلعدوّ . ونزل هفتكين على دمشق من غير

حرب فأقام أياما . ثم سار يزيد محاربة ظالم فقر منه ودخل هفتكين بعلبك فطرقه العدو من الروم والفرنج وانتهبوا بعلبك وأحرقوا وذلك في شهر رمضان . وانتشروا في أعمال بعلبك والبقاع يقتلون ويأسرون ويحرقون وقصدوا دمشق وقد التحق بها هفتكين . فخرج إليهم أهل دمشق وسألوهم الكف عن البلد والتزموا بمال . فخرج إليهم هفتكين وأهدى إليهم وتكلم معهم في أنه لا يستطيع جباية المال لقوة ابن الماورد وأصحابه وأغرى ملك الروم فقبض عليه وقيده وعاد فجبى المال من دمشق بالعنف وحمل إلى ملك الروم ثلثين ألف دينار ورحل إلى بيروت ثم إلى طرابلس

فتمكن هفتكين من دمشق وأقام بها الدعوة لأبي بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسي وسير إلى العرب السرايا فظفرت وعادت إليه بعدة ممن أسرته من رجال العرب وقتلهم صبرا . وكان تخوف من المعز . فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعز وما زال بهم حتى وافوا دمشق في سنة خمس وستين ونزلوا على ظاهرها ومعهم كثير من أصحاب هفتكين كانوا قد تشتتوا في البلاد فقوي بهم ولقي القرامطة وحمل إليهم وسر بهم . فأقاموا على دمشق أياما ثم رحلوا نحو الرملة وبها أبو محمود فلحق بيافا ونزل القرامطة الرملة

وَنَصَبُوا ٱلْقِتَالَ عَلَى يَافَا حَتَّى كَلَّ ٱلْفَرِيقَانِ وَسَئِمُوا جَمِيعًا مِنْ طُولِ ٱلْحَرْبِ وَسَارَ هَفْتَكِينُ عَلَى ٱلسَّاحِلِ وَنَزَلَ صَيْدَا وَبِهَا ظَالِمُ بْنُ مَرْهُوبٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ وَٱبْنُ ٱلشَّيْخِ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُعِزِّ . فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا أَنْهَزَمَ مِنْـهُ ظَالِمٌ إِلَى صُورَ وَقُتِلَ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ . فَقَطَعَ أَيْدِيَ ٱلْقَتْلَى مِنْ عَسَاكِرِ ٱلْمُعِزِّ وَسَيَّرَهَا إِلَى دِمَشْقَ فَطِيفَ بِهَـا . ثُمَّ سَارَ عَنْ صَيْدَا يُرِيدُ عَكَّا وَبِهَا عَسْكَرُ ٱلْمُعِزِّ

وَكَانَ قَدْ مَاتَ ٱلْمُعِزُّ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ٱبْنُهُ ٱلْعَزِيزُ بِٱللّٰهِ وَسَيَّرَ جَوْهَرًا ٱلْقَائِدَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ إِلَى قِتَالِ هَفْتَكِينَ وَٱلْقَرَامِطَةِ . فَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْقَرَامِطَةَ وَهُمْ عَلَى ٱلرَّمْلَةِ وَوَصَلَ ٱلْخَـبَرُ بِمَسِيرِهِ إِلَى هَفْتَكِينَ وَهُوَ عَلَى عَكَّا فَخَافَ ٱلْقَرَامِطَةُ وَفَرُّوا عَنْهَا فَنَزَلَهَا جَوْهَرٌ وَسَارَ مِنَ ٱلْقَرَامِطَةِ إِلَى ٱلْأَحْسَاءِ ٱلَّتِي هِيَ بِلَادُهُمْ جَمَاعَةٌ وَتَأَخَّرَ عِدَّةٌ . وَسَارَ هَفْتَكِينُ مِنْ عَكَّا إِلَى طَـبَرِيَّةَ وَقَدْ عَلِمَ بِمَسِيرِ ٱلْقَرَامِطَةِ وَتَأَخُّرِ بَعْضِهِمْ فَٱجْتَمَعَ بِهِمْ فِي طَبَرِيَّةَ وَٱسْتَعَدَّ لِلِقَاءِ جَوْهَرٍ وَجَمَعَ ٱلْأَقْوَاتَ مِنْ بِـلَادِ حَوْرَانَ وَٱلْبَثْنِيَّةِ وَأَدْخَلَهَا إِلَى دِمَشْقَ وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَحَصَّنَ بِهَا . وَنَزَلَ جَوْهَرٌ عَلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ ذِي ٱلْقَعْدَةِ وَبَنَى عَلَى مُسْكَنِهِ سُورًا وَحَفَرَ خَنْدَقًا عَظِيمًا وَجَعَلَ لَهُ أَبْوَابًا وَجَمَعَ هَفْتَكِينُ ٱلنَّاسَ لِلْقِتَالِ . وَكَانَ قَدْ تَعَيَّنَ بَعْدَ ٱبْنِ ٱلْمَاوَرْدِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِقَسَّامٍ ٱلشَّرَّابِ وَصَارَ فِي عِدَّةٍ وَافِرَةٍ مِنَ ٱلدُّعَّارِ فَأَعَانَهُ هَفْتَكِينُ وَقَوَّاهُ وَأَمَدَّهُ بِٱلسِّلَاحِ وَغَـيْرِهِ .

وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوْهَرٍ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ إِلَى يَوْمِ ٱلْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلْثِمِائَةٍ

فَٱخْتَلَّ أَمْرُ هَفْتَكِينَ وَهَمَّ بِٱلْفِرَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ ٱسْتَظْهَرَ وَوَرَدَتِ ٱلْأَخْبَارُ بِقُدُومِ ٱلْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْقَرْمَطِيِّ إِلَى دِمَشْقَ وَطَلَبَ جَوْهَرُ ٱلصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ عَنْ دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْبَعَهُ أَحَدٌ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ رَأَى أَمْوَالَهُ قَدْ قَلَّتْ وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِمَّا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ حَتَّى صَارَ أَكْثَرُ عَسْكَرِهِ رَجَّالَةً وَأَعْوَزَهُمُ ٱلْعَلَفُ وَخَشِيَ قُدُومَ ٱلْقَرَامِطَةِ. فَأَجَابَهُ هَفْتَكِينُ وَقَدْ عَظُمَ فَرَحُهُ وَٱشْتَدَّ سُرُورُهُ. فَرَحَلَ فِي ثَالِثِ جُمَادَى ٱلْأُولَى وَجَدَّ فِي ٱلسَّيْرِ وَقَدْ قَرُبَ ٱلْقَرْمَطِيُّ فَأَنَاخَ بِطَبَرِيَّةَ. فَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْقَرْمَطِيَّ فَقَصَدَهُ وَقَدْ سَارَ عَنْهَا إِلَى ٱلرَّمْلَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَرِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَ جَوْهَرٍ وَقْعَةٌ قُتِلَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَأَدْرَكَهُ ٱلْقَرْمَطِيُّ وَسَارَ فِي أَثَرِهِ هَفْتَكِينُ. فَمَاتَ ٱلْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْقَرْمَطِيُّ بِٱلرَّمْلَةِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ ٱلْقَرَامِطَةِ ٱبْنُ عَمِّهِ جَعْفَرٌ. فَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَفْتَكِينَ وَرَجَعَ عَنِ ٱلرَّمْلَةِ إِلَى ٱلْأَحْسَاءِ وَنَاصَبَ هَفْتَكِينُ ٱلْقِتَالَ وَأَلَحَّ فِيهِ عَلَى جَوْهَرٍ حَتَّى ٱنْهَزَمَ مِنْهُ وَصَارَ إِلَى عَسْقَلَانَ. وَقَدْ غَنِمَ هَفْتَكِينُ مِمَّا كَانَ مَعَهُ شَيْئًا يَجِلُّ عَنِ ٱلْوَصْفِ وَنَزَلَ عَلَى ٱلْبَلَدِ مُحَاصِرًا لَهُ. وَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَزِيزَ فَٱسْتَعَدَّ لِلْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِ ٱلشَّامِ

فَلَمَّا طَالَ ٱلْأَمْرُ عَلَى جَوْهَرٍ رَاسَلَ هَفْتَكِينَ حَتَّى تَقَرَّرَ ٱلصُّلْحُ

عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ سَيْفِ هَفْتَكِينَ. فَعَلَّقَ سَيْفَهُ عَلَى بَابِ عَسْقَلَانَ وَخَرَجَ جَوْهَرٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ تَحْتِهِ وَسَارُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ فَوَجَدَ الْعَزِيزَ قَدْ بَرَزَ يُرِيدُ السَّيْرَ فَسَارَ مَعَهُ. وَكَانَ مُدَّةُ قِتَالِ هَفْتَكِينَ لِجَوْهَرٍ عَلَى ظَاهِرِ الرَّمْلَةِ وَفِي عَسْقَلَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. وَسَارَ الْعَزِيزُ بِاللهِ حَتَّى نَزَلَ الرَّمْلَةَ. وَكَانَ هَفْتَكِينُ بِطَبَرِيَّةَ فَسَارَ إِلَى لِقَاءِ الْعَزِيزِ وَمَعَهُ أَبُو إِسْحَقَ وَأَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ وَأَبُو كَالِيجَارَ مَرْزُبَانُ بْنُ عِزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ وَحَارَبُوهُ. فَلَمْ تَكُنْ غَيْرُ سَاعَةٍ حَتَّى هَزَمَتْ عَسَاكِرُ الْعَزِيزِ عَسَاكِرَ هَفْتَكِينَ وَمَلَكُوهُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلثِمِائَةٍ. وَاسْتَأْمَنَ أَبُو إِسْحَقَ وَمَرْزُبَانُ بْنُ بَخْتِيَارَ وَقُتِلَ أَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ وَأُخِذَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ أَسْرَى وَطُلِبَ هَفْتَكِينُ فِي الْقَتْلَى فَلَمْ يُوجَدْ وَكَانَ قَدْ فَرَّ وَقْتَ الْهَزِيمَةِ عَلَى فَرَسٍ بِمُفْرَدِهِ فَأَخَذَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ أَسِيرًا وَقَدِمَ بِهِ عَلَى مُفَرِّجِ بْنِ دَغْفَلِ بْنِ الْجَرَّاحِ الطَّائِيِّ وَعِمَامَتُــهُ فِي عُنُقِهِ. فَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فَأَمَرَ بِهِ فَشُهِرَ فِي الْعَسْكَرِ وَطِيفَ بِهِ فَأَخَذَ النَّاسُ يَلْطِمُونَهُ وَيَهُزُّونَ لِحْيَتَهُ حَتَّى رَأَى فِي نَفْسِهِ الْعِبَرَ

ثُمَّ سَارَ الْعَزِيزُ بِهَفْتَكِينَ وَالْأَسْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ فَاصْطَنَعَهُ وَمَنْ مَعَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارٍ وَوَاصَلَهُ بِالْعَطَاءِ وَالْخِلَعِ حَتَّى قَالَ: لَقَدِ احْتَشَمْتُ مِنْ رُكُوبِي مَعَ مَوْلَانَا الْعَزِيزِ بِاللهِ

وَنَظَرِي إِلَيْهِ بِمَا غَمَرَنِي بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ: فَلَمَّا بَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَزِيزَ قَالَ لِعَمِّهِ حَيْدَرَةَ: يَا عَمِّ وَٱللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَرَى ٱلنِّعَمَ عَلَى ٱلنَّاسِ ظَاهِرَةً وَأَرَى عَلَيْهِمِ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَٱلْجَوْهَرَ وَلَهُمُ ٱلْخَيْلَ وَٱللِّبَاسَ وَٱلضِّيَاعَ وَٱلْعَقَارَ وَأَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِي: وَبَلَغَ ٱلْعَزِيزَ أَنَّ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعَامَّةِ يَقُولُونَ مَا هٰذَا ٱلتُّرْكِيُّ فَأَمَرَ بِهِ وَشُهِرَ فِي أَجْمَلِ حَالٍ. وَلَمَّا رَجَعَ مِنْ تَطْوَافِهِ وَهَبَ لَهُ مَالًا جَزِيلًا وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ سَائِرَ ٱلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى دُورِهِمْ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهُ دَعْوَةً وَقَدِمَ إِلَيْهِ وَقَادَ بَيْنَ يَدَيْهِ ٱلْخُيُولَ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْعَزِيزَ قَالَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ: كَيْفَ رَأَيْتَ دَعْوَةَ أَصْحَابِنَا. فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا حَسَنَةٌ فِي ٱلْغَايَةِ وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمَ وَأَكْرَمَ: فَصَارَ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ وَٱلتَّفَرُّجِ وَجَمَعَ إِلَيْهِ ٱلْعَزِيزُ بِٱللهِ أَصْحَابَهُ مِنَ ٱلْأَتْرَاكِ وَٱلدَّيْلَمِ وَٱسْتَحْجَبَهُ وَٱخْتَصَّ بِهِ. وَمَا زَالَ عَلَى ذٰلِكَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ فَٱتَّهَمَ ٱلْعَزِيزُ وَزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كِلِّسٍ أَنَّهُ سَمَّهُ لِأَنَّ هَفْتَكِينَ كَانَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ فَٱعْتَقَلَهُ مُدَّةً ثُمَّ أَخْرَجَهُ

حَارَةُ ٱلْأَتْرَاكِ. هٰذِهِ ٱلْحَارَةُ تُجَاهَ ٱلْجَامِعِ ٱلْأَزْهَرِ وَتُعْرَفُ ٱلْيَوْمَ بِدَرْبِ ٱلْأَتْرَاكِ. وَكَانَ نَافِذًا إِلَى حَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْوَرَّاقُونَ ٱلْقُدَمَاءُ تَارَةً يُفْرِدُونَهَا مِنَ ٱلدَّيْلَمِ وَتَارَةً يُضِيفُونَهَا إِلَيْهَا وَيَجْعَلُونَهَا مِنْ حُقُوقِهَا فَيَقُولُونَ حَارَةَ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ حَارَتَيِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ. وَقِيلَ لَهَا حَارَةُ ٱلْأَتْرَاكِ لِأَنَّ هَفْتَكِينَ لَمَّا غَلَبَ بِبَغْدَادَ

سَارَ مَعَهُ مِنْ جِنْسِهِ أَرْبَعمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَتْرَاكِ وَتَلَاحَقَ بِهِ عِنْدَ وُرُودِ ٱلْقَرَامِطَةِ عَلَيْهِ بِدِمَشْقَ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا جَمَعَ لِحَرْبِ ٱلْعَزِيزِ بِٱللّٰهِ كَانَ أَصْحَابُهُ مَا بَيْنَ تُرْكٍ وَدَيْلَمٍ . فَلَمَّا قَبَضَ عَلَيْهِ ٱلْعَزِيزُ وَدَخَلَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ بِهِ فِي ٱلثَّانِي وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ نَزَلَ ٱلدَّيْلَمُ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي مَوْضِعِ حَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَنَزَلَ هَفْتَكِينُ بِأَتْرَاكِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ . فَصَارَ يُعْرَفُ بِحَارَةِ ٱلْأَتْرَاكِ وَكَانَتْ مُخْتَلِطَةً بِحَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ لِأَنَّهُمَا أَهْلُ دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ عَلَى حِدَةٍ لِتَخَالُفِهِمَا فِي ٱلْجِنْسِيَّةِ ثُمَّ قِيلَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَرْبُ ٱلْأَتْرَاكِ

كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَنْسَخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ ٱلْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ لِتَرُدَّ عَنْهَا ٱلْغُبَارَ . فَجَاءَ خُوَيْدِمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَٱسْتَغْرَقَ فِي ٱلنَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي تِلْكَ ٱلْمِلْحَفَةِ ٱلْمَبْسُوطَةِ عَلَى ٱلْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى ٱلْمَسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا مَشْغُولٌ بِٱلنَّسْخِ فَأَحْسَسْتُ بِوَطْءٍ فِي ٱلدِّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ ٱلْخَلِيفَةُ وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِٱلْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعِجًا وَقَبَّلْتُ ٱلْأَرْضَ فَقَالَ لِي : هٰذَا ٱلْخُوَيْدِمُ ٱلَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي هٰذِهِ

نُخْبَةٌ

مِنْ سِيرَةِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ (١)

لِبَهَاءِ ٱلدِّينِ ٱلشَّدَّادِيِّ

ذِكْرُ مَسِيرِ ٱلْإِفْرَنْجِ ٱلصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَكَّا إِلَى عَسْقَلَانَ وَٱنْتِقَالِهِمْ إِلَى طَرَفِ ٱلْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ ٱلْغَرْبِ

وَلَمَّا كَانَ ٱلتَّاسِعُ وَٱلْعِشْرُونَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. رَكِبَ ٱلْإِفْرَنْجُ بِأَسْرِهِمْ. وَقَلَعُوا خِيَامَهُمْ. وَحَمَلُوهَا عَلَى دَوَابِّهِمْ. وَسَارُوا حَتَّى قَطَعُوا ٱلنَّهْرَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ. وَضَرَبُوا ٱلْخِيَامَ عَلَى طَرِيقِ عَسْقَلَانَ. وَأَظْهَرُوا ٱلْعَزْمَ عَلَى ٱلْمَسِيرِ عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ. وَأَمَرَ ٱلْأَنْكِتَارُ (يُرِيدُ بِهِ رِيكَرْدُوس مَلِكَ

---

(١) اما صلاح الدين فهو اول ملوك الايوبيين في مصر ولد في تكريت ما بين النهرين وكان ولدًا لايوب الكردي. فاشتهر منذ شبيبتهِ بمحاربة المسيحيين فذهب الى مصر حيث تقيد بخدمة نور الدين في سنة ١١٦٤ فاصبح وزيرًا لاخر الفاطميين. وبعد وفاة نور الدين انتهز فرصةً حداثة ولده صلاح اسماعيل. فاقام نفسهُ وصيًّا عليهِ واستولى على سورية في سنة ١١٧٥. ثمّ استقل في مصر والحق بملكه جانبًا عظيمًا من بين النهرين. فحاربهُ المسيحيون فاستظهروا عليهِ في رملة (١١٧٨) لكنهُ استظهر في بانياس وطبرية على قوي دي لوزينيان مالك القدس واستأسره (١١٧٨) وفيها استولى على القدس وقبض على زمام مملكتها فكان سقوط مملكة القدس سببًا لحرب الصليبيين الثالثة. فاضطر صلاح الدين أن يقاسي مشقات عظيمة اولًا فاخذت منهُ عكا وقيصرية ويافا. لكنهُ قهرًا عن بسالة المسيحيين لاسيما ريكردوس قلب الاسد ظفر وساد. وتوفي سنة ١١٩٣ ولهُ اخ يدعى مالك عادل و١٧ ولدًا تقاسموا ملكه. فحاز صلاح الدين الاعتبار حتى لدى المسيحيين ايضًا لحسن سياسته ونشاطه وكرمه وشجاعته (بو لبي)

ٱلْأَنْكِلِيزِ) بَاقِيَ ٱلنَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى ٱلْبَـلَدِ . وَكَانُوا قَدْ سَدُّوا ثُغَرَهُ وَثُلَمَهُ . وَأَصْلَحُوا مَا ٱسْتُهْدِمَ مِنْهُ . وَكَانَ مُقَدَّمَ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْخَارِجِ ٱلسَّائِرِ ٱلْأَنْكِتَارُ . وَجَمْعٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلرَّجَّالَةِ وَٱلْخَيَّالَةِ . وَلَمَّا كَانَ مُسْتَهَلُّ شَعْبَانَ ٱشْتَعَلَتْ نِـيرَانُ ٱلْعَدُوِّ فِي سُحْرَةِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَعَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا ٱلرَّحِيلَ أَشْعَلُوا نِيرَانَهُمْ . وَأَخْبَرَ ٱلْيَزَكُ بِحَرَكَتِهِمْ فَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ بِٱلثِّقَـلِ أَنْ يُرْفَعَ حَتَّى يَبْقَى ٱلنَّاسُ عَلَى ظَهْرٍ . فَفَعَلَ ٱلنَّاسُ ذٰلِكَ . وَهَلَكَ مِنَ ٱلنَّاسِ قُمَاشٌ كَثِيرٌ . وَحَوَائِجُ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلسُّوقَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ خَيْلٌ وَلَا ظَهْرٌ يَحْمِـلُ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُمْ . لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ كَانَ يُحَصِّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَشْهُرٍ . وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلسُّوقَةِ عِنْدَهُ مَا يَنْقُذُ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ فِي مِرَارٍ مُتَعَدِّدَةٍ . لٰكِنَّ هٰذَا ٱلْمَنْزِلَ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَتَخَلَّفَ فِيهِ أَحَدٌ لِقُرْبِهِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ ٱلَّذِينَ بِعَكَّا وَٱلْخَوْفِ مِنْهُمْ

وَلَمَّا أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ . شَرَعَ ٱلْعَدُوُّ فِي ٱلسَّيْرِ عَلَى جَانِبِ ٱلْبَحْرِ . وَتَفَرَّقُوا قِطَعًا كَثِيرَةً . كُلُّ قِطْعَةٍ تَحْمِي عَنْ نَفْسِهَا . وَقَوَّى ٱلسُّلْطَانُ (أَيْ صَلَاحُ ٱلدِّينِ) ٱلْيَزَكَ . وَأَنْفَذَ مُعْظَمَ ٱلْعَسَاكِرِ قُبَالَتَهُمْ . فَمَضَوْا وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا . وَأَنْفَذَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفْضَلَ يُخْبِرُ أَنَّهُ قَطَعَ طَائِفَةً مِنْهُمْ عَنِ ٱلْمُوَافَقَةِ . وَلَقَدْ لَزَّ بِنَاهُمْ بِٱلْقِتَالِ . وَلَوْ قَوِينَا لَأَخَذْنَاهُمْ . فَسَيَّرَ ٱلسُّلْطَـانُ خَلْقًا عَظِيمًا مِنَ ٱلْعَسْكَرِ . وَسَارَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَأَنَا بِخِدْمَتِهِ . حَتَّى أَتَى أَوَائِلَ ٱلرَّمْـلِ . فَلَقِينَا ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ أَخُوهُ : إِنَّ

تِلْكَ ٱلطَّائِفَةَ قَدِ ٱلْتَجَتْ بِٱلطَّائِفَةِ ٱلْأُولَى . وَمُعْظَمُ ٱلْقَوْمِ قَدْ عَبَرُوا نَهْرَ حَيْفَا وَقَدْ نَزَلُوا . وَٱلْبَاقُونَ قَدْ لَحِقُوا بِهِمْ . وَلَيْسَ لِلْمَسِيرِ وَرَاءَهُمْ حَاصِلٌ إِلَّا إِتْعَابُ ٱلْعَسْكَرِ وَضَيَاعُ ٱلنُّشَّابِ لَا غَيْرُ

فَتَرَاجَعَ ٱلسُّلْطَانُ عَنِ ٱلْقَوْمِ لَمَّا تَحَقَّقَ ذٰلِكَ وَأَمَرَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْعَسْكَرِ أَنْ تَسِيرَ وَرَاءَ ٱلثَّقَلِ يَلْحَقُ ضَعِيفُهُمْ بِقَوِيِّهِمْ . وَيَكُفُّ عَنْهُمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَٱلطَّمَّاعَةِ وَسَارَ هُوَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْقَيْمُونِ عَصْرَ ذٰلِكَ ٱلنَّهَارِ فَنَزَلَ وَضُرِبَ لَهُ ٱلدِّهْلِيزُ وَشُقَّةٌ دَائِرَةٌ حَوْلَهُ لَا غَيْرُ . وَٱسْتَحْضَرَ ٱلْجَمَاعَةَ وَأَكَلُوا شَيْئًا وَٱسْتَشَارَهُمْ فِي مَا يَفْعَلُ

أَلْمَنْزِلُ ٱلثَّانِي : ٱتَّفَقَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْحَلُونَ بُكْرَةَ غَدٍ . هٰذَا وَقَدْ رَتَّبَ حَوْلَ ٱلْإِفْرَنْجِ يَزَكًا يَبِيتُونَ حَوْلَهُ وَيَرْقُبُونَ أَمْرَهُ . وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ ثَانِي شَعْبَانَ رَحَّلَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّقَلَ وَأَقَامَ هُوَ يَتَرَصَّدُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ . فَسَارَ فِي أَثَرِ ٱلثَّقَلِ حَتَّى أَتَى قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا قَرْيَةُ ٱلصَّبَّاغِينَ . فَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ وَكَانَ قَدْ خَلَّفَ جُرْدِيكَ قَرِيبَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْهُ خَبَرٌ أَصْلًا . فَسَارَ حَتَّى أَتَى ٱلثَّقَلَ فِي مَنْزِلَةٍ يُقَالُ لَهَا عُيُونُ ٱلْأَسَاوِدِ وَلَمَّا بَلَغْنَا ٱلْمَنْزِلَةَ رَأَى خِيَامًا فَسَأَلَ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا خِيَمُ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ . فَعَدَلَ لِيَنْزِلَ عِنْدَهُ فَأَقَامَ عِنْدَهُ سَاعَةً . ثُمَّ أَتَى خَيْمَتَهُ . وَفُقِدَ ٱلْخُبْزُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَغَلَا ٱلشَّعِيرُ حَتَّى بَلَغَ دِرْهَمًا وَبَلَغَ ٱلْبَقْسِمَاطُ ٱلرَّطْلُ

دِرْهَمَيْنِ . ثُمَّ أَقَامَ ٱلسُّلْطَانُ حَتَّى عَبَرَ وَقْتُ ٱلظُّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ إِلَى مُوضِعٍ يُسَمَّى ٱلْمَلَّاحَةَ تَكُونُ مَنْزِلًا لِلْعَدُوِّ إِذَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا . وَكَانَ قَدْ سَبَقَ لِيَتَفَقَّدَ ٱلْمَكَانَ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمَصَافِّ أَمْ لَا . وَيَتَفَقَّدُ أَرَاضِي قَيْسَارِيَةَ بِأَسْرِهَا إِلَى ٱلشَّعْرَاءِ . وَعَادَ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ ٱلْعِشَاءِ ٱلْآخِرِ . وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ ٱلتَّعَبُ . وَسَأَلْتُهُ عَمَّا بَلَغَهُ مِنْ خَبَرِ ٱلْعَدُوِّ فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيْنَا مَنْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ مَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا إِلَى عَصْرِ يَوْمِنَا هٰذَا يَعْنِي ثَانِيَ شَعْبَانَ وَهَا نَحْنُ مُقِيمُونَ مُرْتَقِبُونَ أَخْبَارَهُمْ وَيَكُونُ ٱلْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا . وَبَاتَ فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِتَلِّ ٱلزَّلْزَلَةِ يَنْتَظِرُ ٱلْعَدُوَّ وَنَادَى ٱلْجَاوِيشُ بِٱلْعَسْكَرِ لِلْعَرْضِ . فَرَكِبَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَرْتِيبِ ٱلْمَصَافِّ وَأُهْبَتِهِ . وَلَمَّا عَلَا ٱلنَّهَارُ نَزَلَ ٱلسُّلْطَانُ فِي خَيْمَتِهِ وَأَخَذَ نَصِيبًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ ٱلْغَدَاءِ وَمُثُولِ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ إِلَى خِدْمَتِهِ وَأَخْذِ رَأْيِهِمْ فِي مَا يَصْنَعُونَ . ثُمَّ صَلَّى ٱلظُّهْرَ وَجَلَسَ يُطْلِقُ أَثْمَانَ ٱلْخُيُولِ ٱلْمَجْرُوحَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى ٱلْعِشَاءِ ٱلْآخِرَةِ مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ إِلَى مِئَةٍ وَخَمْسِينَ دِينَارًا وَزَائِدًا وَنَاقِصًا . فَمَا رَأَيْتُ أَفْسَحَ صَدْرًا مِنْهُ وَلَا أَبْسَطَ وَجْهًا فِي ٱلْعَطَاءِ وَٱتَّفَقَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رَحِيلِ ٱلثِّقَلِ فِي عَصْرِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ إِلَى مَجْدَلِ يَافَا

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّالِثُ : وَأَقَامَ هُوَ جَرِيدَةً بِٱلْمَنْزِلِ إِلَى ٱلصَّبَاحِ رَابِعَ ٱلشَّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ فِي رَأْسِ ٱلنَّهْرِ ٱلْجَارِي إِلَى قَيْسَارِيَةَ وَنَزَلَ هُنَاكَ . وَبَلَغَ ٱلْبَقْسِمَاطُ ٱلرِّطْلُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ . وَٱلشَّعِيرُ ٱلرُّبْعُ دِرْهَمَيْنِ .

وَنُصفٍ. وَٱلْخُبْزُ لَمْ يُوجَدْ أَصْلًا. وَنَزَلَ فِي خَيْمَةٍ وَأَكَلَ خُبْزًا وَصَلَّى ٱلظُّهْرَ. وَرَكِبَ إِلَى طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ لِتَجْدِيدِ إِرْشَادِهِ فِي ضَرْبِ ٱلْمَصَافِّ. وَلَمْ يَعُدْ إِلَى أَنْ دَخَلَ وَقْتُ ٱلْعَصْرِ فَجَلَسَ سَاعَةً وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ. ثُمَّ عَادَ وَرَكِبَ وَأَمَرَ ٱلنَّاسَ بِٱلرَّحِيلِ وَرَمَى خَيْمَتَهُ وَرَمَى ٱلنَّاسُ خِيَامَهُمْ فِي أَوَاخِرِ ٱلنَّهَارِ

أَلْمَنْزِلُ ٱلرَّابِعُ: وَكَانَ ٱلرَّحِيلُ إِلَى رَابِيَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ ٱلرَّابِيَةِ. وَفِي ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ أُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمُ ٱلْيَزَكُ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا فَقُتِلَا. وَتَكَاثَرَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِمَا بِٱلسُّيُوفِ تَشَفِّيًا. ثُمَّ بَاتَ هُنَاكَ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِٱلْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عَنِ ٱلْعَدُوِّ رَحِيلٌ وَأَنْفَذَ إِلَى ٱلثَّقَلِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ مِمَّا طَرَأَ عَلَى ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلضِّيقِ فِي ٱلْمَأْكَلِ وَٱلْقَضْمِ. وَرَكِبَ فِي وَقْتِ عَادَتِهِ إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ. وَأَشْرَفَ عَلَى قَيْسَارِيَةَ. وَعَادَ إِلَى ٱلثَّقَلِ قَرِيبَ ٱلظُّهْرِ وَقَدْ وَصَلَ ٱلْخَبَرُ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلْ بَعْدُ مِنَ ٱلْمَلَّاحَةِ. وَأُحْضِرَ عِنْدَهُ ٱثْنَانِ أَيْضًا قَدْ أُخِذَا مِنْ أَطْرَافِ ٱلْعَدُوِّ وَقُتِلَا شَرَّ قِتْلَةٍ. وَكَانَ فِي حِدَّةِ ٱلضِّيقَةِ لِمَا جَرَى عَلَى أَسْرَى عَكَّا. ثُمَّ أَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَجَلَسَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ. وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ وَقَدْ أُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْعَدُوِّ فَارِسٌ مَذْكُورٌ هَيْئَتُهُ تُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ فِيهِمْ. فَأُحْضِرَ تُرْجُمَانٌ وَبَحَثَ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْقَوْمِ وَسَأَلَهُ كَيْفَ يُسَوَّى ٱلطَّعَامُ عِنْدَكُمْ فَقَالَ: أَوَّلَ يَوْمٍ رَحَلْنَا مِنْ عَكَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ

يَشْبَعُ بِسِتَّةِ قَرَاطِيسَ فَلَمْ يَزَلِ ٱلسِّعْرُ يَغْلُو حَتَّى صَارَ يَشْبَعُ بِثَمَانِيَةِ قَرَاطِيسَ . وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأَخُّرِهِمْ فِي ٱلْمَنَازِلِ فَقَالَ : لِانْتِظَارِ وُصُولِ ٱلْمَرَاكِبِ بِٱلرِّجَالِ وَٱلْمِيرَةِ . فَسَأَلَ عَنِ ٱلْقَتْلَى وَٱلْجَرْحَى فِي يَوْمِ رَحِيلِهِمْ فَقَالَ : كَثِيرٌ . فَسَأَلَ عَنِ ٱلْخَيْلِ ٱلَّتِي هَلَكَتْ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فَقَالَ : مِقْدَارُ أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسٍ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ . وَنَهَى عَنِ ٱلتَّمْثِيلِ بِهِ . فَسَأَلَ ٱلتَّرْجُمَانَ عَمَّا قَالَ ٱلسُّلْطَانُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ . فَتَغَيَّرَ تَغَيُّرًا عَظِيمًا وَقَالَ : أَنَا أُخَلِّصُ لَكُمْ أَسِيرًا مِنْ عَكَّا . فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللهُ بَلْ أَمِيرًا . فَقَالَ : لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلَاصِ أَمِيرٍ . فَشَفَعَ ٱلطَّمَعُ فِيهِ وَحُسْنُ خِلْقَتِهِ . فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ أَتَمَّ خِلْقَةً مِنْهُ مَعَ تَرَفٍ فِي ٱلْأَطْرَافِ وَرَفَاهِيَةٍ . فَأَمَرَ أَنْ يُتْرَكَ ٱلْآنَ وَيُؤَخَّرَ أَمْرُهُ . فَصَدَقَهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى مَا بَدَا مِنْهُمْ مِنَ ٱلْغَدْرِ وَقَتْلِ ٱلْأَسْرَى . فَٱعْتَرَفَ بِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِرِضَى ٱلْمَلِكِ وَحْدَهُ . وَرَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ عَلَى عَادَتِهِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ أَمَرَ بِقَتْلِ ٱلْفَارِسِ ٱلْمَذْكُورِ . وَأُتِيَ بَعْدَهُ بِٱثْنَيْنِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا . وَبَاتَ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَذُكِرَ لَهُ فِي ٱلسَّحَرِ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ قَدْ تَحَرَّكَ نَحْوَ قِيسَارِيَةَ . وَقَارَبَ أَوَائِلُهُمُ ٱلْبَلَدَ . فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ مَنْزِلًا آخَرَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلْخَامِسُ : فَرَحَلَ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ إِلَى قَرِيبِ ٱلتَّلِّ ٱلَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ فَنَزَلَ ٱلنَّاسُ وَضُرِبَتِ ٱلْخِيَامُ . وَمَضَى هُوَ يَرْتَادُ ٱلْأَرَاضِيَ ٱلْكَائِنَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ لِيَنْظُرَ أَيُّهَا أَصْلَحُ لِلْمَصَافِّ وَنَزَلَ قَرِيبَ

ٱلظُّهر . وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ . وَعَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ . وَأَخَذَ رَأْيَهُمَا فِي مَا يَصْنَعُ . وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَأَذَّنَ ٱلظُّهْرَ . فَصَلَّى وَرَكِبَ لِيُشْرِفَ وَلِيَكْشِفَ عَنِ ٱلْعَدُوِّ وَيَتَنَسَّمَ أَخْبَارَهُ . وَأَتَاهُ ٱثْنَانِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ نُهِبَا وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا فَقُتِلَا . ثُمَّ أُتِيَ بِٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا . وَجِيءَ أَوَاخِرَ ٱلنَّهَارِ بِٱثْنَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا . وَعَادَ مِنَ ٱلرُّكُوبِ وَصَلَّى صَلَاةَ ٱلْمَغْرِبِ . وَجَلَسَ عَلَى عَادَتِهِ وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ وَصَرَفَ ٱلنَّاسَ . وَخَلَا بِهِ إِلَى هَوِيٍّ مِنَ ٱللَّيْلِ . ثُمَّ بَاتَ وَأَصْبَحَ وَنَادَى ٱلْجَاوِيشُ لِعَرْضِ ٱلْحَلْقَةِ لَا غَيْرُ . وَرَكِبَ إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ وَوَقَفَ عَلَى تُلُولٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى قِيسَارِيَةَ . وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهَا نَهَارَ ٱلْجُمُعَةِ سَادِسَ شَعْبَانَ . وَلَمْ يَزَلْ يَعْرِضُ هُنَاكَ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ . ثُمَّ نَزَلَ وَأَكَلَ ٱلطَّعَامَ . وَرَكِبَ إِلَى أَخِيهِ وَعَادَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ . وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ . وَأُتِيَ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ وَٱمْرَأَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ بَيْنَهُمْ أَسِيرَةٍ . وَهِيَ بِنْتُ ٱلْفَارِسِ ٱلْمَذْكُورِ . وَمَعَهَا أَسِيرَةٌ مُسْلِمَةٌ قَدْ أَخَذَتْهَا . فَأُطْلِقَتِ ٱلْمُسْلِمَةُ . وَرُفِعَ ٱلْبَاقُونَ إِلَى ٱلزَّرْدَخَانَةِ وَهٰؤُلَاءِ أُتِيَ بِهِمْ مِنْ بَيْرُوتَ أُخِذُوا فِي مَرْكَبٍ مِنْ جُمْلَةِ عِدَّةٍ كَثِيرَةٍ قُتِلُوا . كُلُّ ذٰلِكَ فِي نَهَارِ ٱلسَّبْتِ سَابِعِ ٱلشَّهْرِ . وَهُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ ٱلْعَدُوِّ . مُجْمِعًا عَلَى لِقَائِهِ إِذَا رَحَلَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلسَّادِسُ : وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ ٱلثَّامِنِ رَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ عَلَى عَادَتِهِ ثُمَّ نَزَلَ . وَوَصَلَ مِنْ أَخِيهِ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ عَلَى حَرَكَةٍ . وَكَانَتِ

ٱلْأَطْلَابُ قَدْ بَاتَتْ حَوْلَ قِيسَارِيَّةَ فِي مَوَاضِعِهَا. فَأَمَرَ بِمَدِّ ٱلطَّعَامِ وَأَطْعَمَ ٱلنَّاسَ فَوَصَلَ ثَانٍ وَأَخْبَرَ: أَنَّ ٱلْقَوْمَ قَدْ سَارُوا. فَأَمَرَ بِٱلْكُوسِ فَدُقَّ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ وَسِرْتُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَتَى عَسْكَرَ ٱلْعَدُوِّ وَصَفَّ ٱلْأَطْلَابَ حَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ. فَكَانَ ٱلنُّشَّابُ بَيْنَهُمْ كَٱلْمَطَرِ وَكَانَ عَسْكَرُ ٱلْعَدُوِّ قَدْ وَثَبَ. فَكَانَتِ ٱلرَّجَّالَةُ حَوْلَهُ كَٱلسُّورِ وَعَلَيْهِمُ ٱللُّبُودُ ٱلثَّخِينَةُ وَٱلزَّرْدِيَّاتُ ٱلسَّابِغَةُ ٱلْمُحْكَمَةُ بِحَيْثُ يَقَعُ فِيهِمُ ٱلنُّشَّابُ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ وَهُمْ يَرْمُونَ بِٱلزَّنْبُورَكِ فَيَجْرَحُ خَيْلَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخَيَّالَتَهُمْ. وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ وَيَتَغَرَّزُ فِي ظَهْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمُ ٱلْوَاحِدُ وَٱلْعَشَرَةُ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى هِينَتِهِ مِنْ غَيْرِ ٱنْزِعَاجٍ. وَثَمَّ قِسْمٌ آخَرُ مِنَ ٱلرَّجَّالَةِ مُسْتَرِيحٌ يَمْشُونَ عَلَى جَانِبِ ٱلْبَحْرِ وَلَا قِتَالَ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا تَعِبَ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُقَاتِلُونَ أَوْ أَثْخَنَهُمُ ٱلْجِرَاحُ قَامَ مَقَامَهُمُ ٱلْمُسْتَرِيحُ وَٱسْتَرَاحَ ٱلتَّعْسُ ٱلْعَمَّالُ. هٰذَا وَٱلْخَيَّالَةُ فِي وَسْطِهِمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنِ ٱلرَّجَّالَةِ إِلَّا فِي وَقْتِ ٱلْحَمْلَةِ لَا غَيْرُ. وَقَدِ ٱنْقَسَمُوا أَيْضًا ثَلٰثَةَ أَقْسَامٍ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَتِيقُ جُفْرِي وَجَمَاعَةُ ٱلسَّاحِلِيَّةِ مَعَهُ فِي ٱلْمُقَدَّمَةِ وَٱلْأَنْكِتَارُ وَٱلْفَرَنْسِيسُ مَعَهُ فِي ٱلْوَسْطِ وَأَوْلَادُ إِلِيسْتَ أَصْحَابُ طَبَرِيَّةَ وَطَائِفَةٌ أُخْرَى فِي ٱلسَّاقَةِ. وَفِي وَسْطِ ٱلْقَوْمِ بُرْجٌ عَلَى عَجَلَةٍ وَعَلَيْهِ كَٱلْمَنَارَةِ ٱلْعَظِيمَةِ. هٰذَا تَرْتِيبُ ٱلْقَوْمِ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ. وَأَخْبَرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَى وَٱلْمُسْتَأْمَنِينَ. وَسَارُوا عَلَى ٱلْمِثَالِ وَسُوقُ ٱلْحَرْبِ قَائِمَةٌ وَٱلْمُسْلِمُونَ

يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا. وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل. وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة. فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم. فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة. وكان منزلتهم قاطع نهر قيسارية

المنزل السابع: ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر أن العدو قد ركب سائرا فركب السلطان أول الصبح وطلب الأطلاب وأخرج من كل جانب جاليشا. فسار يطلب القوم وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ورزوهم بالنشاب. وهم سائرون ثلثة أقسام على المثال الذي حكيته. وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه. وهم يحفظون بعضهم بعضا. والمسلمون محدقون بهم من ثلثة جوانب والقتال عليهم شديد والسلطان يقرب الأطلاب. ورأيته هو يسير نفسه بين الجاليشين. ونشاب القوم يجاوزه وليس معه إلا صبيان بجنيبين لا غير. وهو يسير من طلب إلى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكوسات تخفق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع. هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون. وجرت

حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَجَّالَتُهُمْ تَجْرَحُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخُيُولَهُمْ بِٱلزَّنْبُوكِ وَٱلنُّشَّابِ . وَلَمْ تَزَلْ حَوَالَيْهِمْ تُقَاتِلُهُمْ وَتَحْمِلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَكُرُّونَ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يَعْتَكِرُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ أَتَوْا نَهْرًا يُقَالُ لَهُ نَهْرُ ٱلْقَصَبِ نَزَلُوا عَلَيْهِ . وَقَدْ قَامَتِ ٱلظَّهِيرَةُ وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ . وَتَرَاجَعَ ٱلنَّاسُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا نَزَلُوا أَيِسَ ٱلنَّاسُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ مَعَهُمْ وَرَجَعُوا عَنْ قِتَالِهِمْ . وَفِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ قُتِلَ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْإِسْلَامِ شُجَاعٌ كُنْيَتُهُ إِيَازُ ٱلطَّوِيلُ بَعْضُ مَمَالِيكِ ٱلسُّلْطَانِ . وَكَانَ قَدْ فَتَكَ فِيهِمْ وَقَتَلَ خَلْقًا مِنْ خَيَّالَتِهِمْ وَشُجْعَانِهِمْ وَكَانَتْ قَدِ ٱسْتَفَاضَتْ شَجَاعَتُهُ بَيْنَ ٱلْعَسْكَرَيْنِ بِحَيْثُ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ وَقَعَاتٌ كَثِيرَةٌ وَصَدَّقَتْ أَخْبَارُ ٱلْأَوَائِلِ . وَصَارَ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَهُ ٱلْإِفْرِنْجُ فِي مَوْضِعٍ يَخَافُونَهُ وَتَقَنْطَرَ بِهِ فَرَسُهُ وَٱسْتُشْهِدَ وَحَزِنَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ حُزْنًا عَظِيمًا وَدُفِنَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى ٱلْبِرْكَةِ . وَنَزَلَ ٱلسُّلْطَانُ بِٱلثَّقَلِ عَلَى ٱلْبِرْكَةِ وَهِيَ مَوْضِعٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَأَقَامَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ إِلَى بَعْدِ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ وَأَطْعَمَ ٱلنَّاسَ خُبْزًا وَٱسْتَرَاحُوا سَاعَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَأَتَى نَهْرَ ٱلْقَصَبِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ أَيْضًا فَشَرِبَ مِنْهُ قَلِيلًا مِنْ أَعْلَاهُ وَٱلْعَدُوُّ يَشْرَبُ مِنْ أَسْفَلِهِ . لَيْسَ بَيْنَنَا إِلَّا مَسَافَةٌ يَسِيرَةٌ وَبَلَغَ ٱلشَّعِيرُ ٱلرُّبْعُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وَٱلْخُبْزُ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ وَسِعْرُهُ رَطْلٌ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ . وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ ٱلْإِفْرِنْجِ حَتَّى يَرْحَلَ فِي مُقَابَلَتِهِمْ . وَبَاتُوا تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ هُنَاكَ وَبِتْنَا أَيْضًا

ذِكْرُ وَقْعَةٍ جَرَتْ

وَذٰلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَى ٱلْعَدُوِّ فَصَادَفُوا جَمَاعَةً مِنْهُمْ يَتَشَوَّفُونَ أَيْضاً عَلَى ٱلْعَسْكَرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ فَظَفِرُوا بِهِمْ وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ وَجَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ فَقُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأَحَسَّ بِهِمْ عَسْكَرُ ٱلْعَدُوِّ. فَثَارَ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَٱتَّصَلَ ٱلْحَرْبُ وَقُتِلَ أَيْضاً مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ نَفَرَانِ وَأُسِرَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ ثَلٰثَةٌ وَمَثُلُوا بِخِدْمَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ ٱلْأَحْوَالِ. فَأَخْبَرُوا أَنَّ ٱلْمَلِكَ أَنْكِتَارَ كَانَ قَدْ حَضَرَ عِنْدَهُ بِعَكَّا ٱثْنَانِ بَدَوِيَّانِ وَأَنَّهُمَا أَخْبَرَا بِقِلَّةِ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَذٰلِكَ ٱلَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى خَرَجَ. وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِٱلْأَمْسِ يَعْنِي ٱلِاثْنَيْنِ رَأَى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قِتَالاً عَظِيماً وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْأَطْلَابَ وَأَنَّهُ جُرِحَ زُهَاءَ أَلْفِ نَفَرٍ وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذَاكَ ٱلَّذِي أَوْجَبَ إِقَامَتَهُ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ عَسْكَرُهُ. وَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا أَصَابَهُ مِنَ ٱلْقِتَالِ ٱلْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْضَرَ ٱلْبَدَوِيَّيْنِ عِنْدَهُ وَأَوْقَفَهُمَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا. وَأَقَمْنَا فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ لِإِقَامَةِ ٱلْعَدُوِّ وَهُوَ ٱلثُّلَثَاءُ ٱلْعَاشِرُ مِنْ شَعْبَانَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّامِنُ: وَلَمَّا كَانَ ظَهِيرَةُ ٱلْيَوْمِ ٱلْمَذْكُورِ رَأَى ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ٱلرَّحِيلِ وَٱلتَّقَدُّمِ إِلَى قُدَّامِ ٱلْعَدُوِّ فَدُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ وَدَخَلَ فِي شَعْرَاءِ أَرْسُوفَ حَتَّى تَوَسَّطَهَا إِلَى تَلٍّ عِنْدَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى دَيْرَ ٱلرَّاهِبِ فَنَزَلَ هُنَاكَ وَدَهِمَ ٱلنَّاسَ ٱللَّيْلُ وَهُمْ يَقْطَعُونَ فِي ٱلشَّعْرَاءِ

وَأَصْبَحَ مُقِيمًا يَنْتَظِرُ بَقِيَّةَ ٱلْعَسَاكِرِ إِلَى صَبَاحِ ٱلْأَرْبِعَاءِ ٱلْحَادِي عَشَرَ. وَتَلَاحَقَتِ ٱلْعَسَاكِرُ وَرَكِبَ يَرْتَادُ مَوْضِعًا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ وَلِقَاءِ ٱلْعَدُوِّ. وَأَقَامَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَجْمَعَ هُنَاكَ. وَمِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى نَهْرِ ٱلْقَصَبِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَيْضًا. وَأَنَّهُ لَحِقَهُ نَجْدَةٌ مِنْ عَكَّا فِي ثَمَانِ بَطَسٍ كِبَارٍ وَيَزَكُ ٱلْإِسْلَامِ حَوْلَهُ يُوَاصِلُونَ بِٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَجَدِّدَةِ بِهِمْ

ذِكْرُ مُرَاسَلَةٍ جَرَتْ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ طَلَبَ مِنَ ٱلْيَزَكِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَكَانَ مُقَدَّمُ ٱلْيَزَكِ عَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ فَإِنَّهَا كَانَتْ نَوْبَتَهُ. فَلَمَّا مَضَى إِلَيْهِمْ مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُمْ كَانَ كَلَامُهُمْ طَلَبَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا مَعَهُ. فَٱسْتَأْذَنَ وَمَضَى وَبَاتَ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فِي ٱلْيَزَكِ وَيَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ. وَكَانَ حَاصِلُ حَدِيثِهِمْ أَنَّا قَدْ طَالَ بَيْنَنَا ٱلْقِتَالُ وَأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ ٱلرِّجَالُ ٱلْأَبْطَالُ وَأَنَّا نَحْنُ جِئْنَا فِي نُصْرَةِ إِفْرَنْجِ ٱلسَّاحِلِ. فَٱصْطَلِحُوا أَنْتُمْ وَهُمْ وَكُلٌّ مِنَّا يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ. وَكَتَبَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى أَخِيهِ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّانِي وَٱلْعِشْرِ رُقْعَةً يَقُولُ لَهُ فِيهَا: إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُطَاوِلَ ٱلْإِفْرَنْجَ فَلَعَلَّهُمْ يُقِيمُونَ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَلْحَقَنَا ٱلتُّرْكُمَانُ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَرُبُوا مِنَّا

ذِكْرُ ٱجْتِمَاعِ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ وَٱلْأَنْكِتَارِ

وَلَمَّا عَرَفَ ٱلْأَنْكِتَارُ وُصُولَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ إِلَى ٱلْيَزَكِ طَلَبَ

ٱلْاجْتِمَاعَ بِهِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذٰلِكَ. فَٱجْتَمَعَا بِنَخْوَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِمَا وَكَانَ يُتَرْجِمُ بَيْنَهُمَا ٱبْنُ ٱلْهُنْفِرِي وَهُوَ مِنْ إِفْرَنْجِ ٱلسَّاحِلِ مِنْ كِبَارِهِمْ وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ ٱلصُّلْحِ وَهُوَ شَابٌّ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّهُ مَحْلُوقُ ٱللِّحْيَةِ عَلَى مَا هُوَ شِعَارُهُمْ. وَكَانَ ٱلْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا أَنَّ ٱلْأَنْكِتَارَ شَرَعَ فِي ذِكْرِ ٱلصُّلْحِ وَأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ قَالَ لَهُ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَ ٱلصُّلْحَ وَلَا تَذْكُرُونَ مَطْلُوبَكُمْ فِيهِ حَتَّى أَتَوَسَّطَ أَنَا ٱلْحَالَ مَعَ ٱلسُّلْطَانِ. فَقَالَ ٱلْأَنْكِتَارُ: ٱلْقَاعِدَةُ أَنْ تَعُودَ ٱلْبِلَادُ كُلُّهَا إِلَيْنَا وَتَنْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ فَأَخْشَنَ لَهُ ٱلْجَوَابَ وَجَرَتْ مُنَافَرَةٌ ٱقْتَضَتْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا بَعْدَ ٱنْفِصَالِهِمْ. وَلَمَّا أَحَسَّ ٱلسُّلْطَانُ بِرَحِيلِهِمْ أَمَرَ ٱلثِّقَلَ بِٱلرَّحِيلِ وَوَقَفَ هُوَ وَعَبَّى ٱلنَّاسَ تَعْبِيَةَ ٱلْقِتَالِ. وَسَارَ ٱلثِّقَلُ ٱلصَّغِيرُ أَيْضًا حَتَّى قَارَبَ ٱلثِّقَلَ ٱلْكَبِيرَ. ثُمَّ وَدَّ أُمَرَاءُ ٱلسُّلْطَانِ بِعَوْدِهِمْ إِلَيْهِ. فَعَادُوا وَوَصَلُوا وَقَدْ دَخَلَ ٱللَّيْلُ وَتَخَبَّطَ ٱلنَّاسُ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ تَخَبُّطًا عَظِيمًا وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ لِيُعَرِّفَهُ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَلِكِ. وَخَلَا بِهِ لِذٰلِكَ وَذٰلِكَ فِي لَيْلَةِ ٱلْجُمُعَةِ ثَالِثَ عَشَرَ. وَأَمَّا ٱلْعَدُوُّ فَإِنَّهُ سَارَ وَنَزَلَ عَلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى ٱلْبِرْكَةَ أَيْضًا يُشْرِفُ عَلَى ٱلْبَحْرِ وَأَصْبَحَ ٱلسُّلْطَانُ فِي يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ مُتَطَلِّعًا إِلَى أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ. فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ ٱثْنَانِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمَا ٱلْيَزَكُ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا وَوَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلِ ٱلْيَوْمَ مِنْ مَنْزِلَتِهِ تِلْكَ. فَنَزَلَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱجْتَمَعَ بِأَخِيهِ يَتَحَدَّثَانِ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ وَمَا يَصْنَعُ مَعَ ٱلْعَدُوِّ. وَبَاتَ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ

ذِكْرُ وَقْعَةِ أَرْسُوفَ وَهِيَ أَنْكَتُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُسْلِمِينَ

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلسَّبْتِ رَابِعَ عَشَرَ بَلَغَ ٱلسُّلْطَانَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ حَرَّكَ ٱلرَّحِيلَ نَحْوَ أَرْسُوفَ . فَرَكِبَ وَرَتَّبَ ٱلْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ وَعَزَمَ عَلَى مُضَايَقَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَمُصَادَمَتِهِمْ . وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ مِنْ كُلِّ طُلْبٍ . وَسَارَ ٱلْعَدُوُّ حَتَّى قَارَبَ شَعْرَاءَ أَرْسُوفَ وَبَسَاتِينَهَا وَأَطَاقَ عَلَيْهِمِ ٱلْجَالِيشُ ٱلنُّشَّابَ وَلَزَبَتْهُمُ ٱلْأَطْلَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَٱلسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ بَعْضَهَا وَيُوَقِّفُ بَعْضَهَا وَيُضَايِقُ ٱلْعَدُوَّ مُضَايَقَةً عَظِيمَةً وَٱلْتَحَمَ ٱلْقِتَالُ وَٱضْطَرَمَتْ نَارُهُ مِنَ ٱلْجَالِيشِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ وَجُرِحَ . فَٱشْتَدُّوا فِي ٱلسَّيْرِ عَسَاهُمْ يَبْلُغُونَ ٱلْمَنْزِلَةَ فَيَنْزِلُونَ وَٱشْتَدَّ بِهِمِ ٱلْأَمْرُ وَضَاقَ بِهِمِ ٱلْخِنَاقُ وَٱلسُّلْطَانُ يَطُوفُ مِنَ ٱلْمَيْمَنَةِ إِلَى ٱلْمَيْسَرَةِ يَحُثُّ ٱلنَّاسَ عَلَى ٱلْجِهَادِ وَلَقِيتُهُ مِرَارًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صَبِيَّانِ بِجَنِيبَيْنِ لَا غَيْرُ وَلَقِيتُ أَخَاهُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَالِ وَٱلنُّشَّابُ يُجَاوِزُهُمَا وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ يَشْتَدُّ بِٱلطَّمَعِ لِلْعَدُوِّ وَطَمِعَ ٱلْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا عَظِيمًا حَتَّى وَصَلَ أَوَائِلُ رَاجِلِهِمْ إِلَى بَسَاتِينِ أَرْسُوفَ . ثُمَّ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْخَيَّالَةُ وَتَوَاصَوْا عَلَى ٱلْحَمْلَةِ خَشْيَةً عَلَى ٱلْقَوْمِ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا ٱلْحَمْلَةُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَقَدِ ٱجْتَمَعُوا فِي وَسْطِ ٱلرَّجَّالَةِ وَأَخَذُوا رِمَاحَهُمْ وَصَاحُوا صَيْحَةَ ٱلرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ وَفَرَجَ لَهُمْ رَجَّالَتُهُمْ وَحَمَلُوا حَمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ ٱلْجَوَانِبِ كُلِّهَا فَحَمَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى ٱلْمَيْمَنَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى ٱلْمَيْسَرَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ . فَٱنْدَفَعَ ٱلنَّاسُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . وَٱتَّفَقَ أَنِّي كُنْتُ فِي ٱلْقَلْبِ فَفَرَّ ٱلْقَلْبُ فِرَارًا عَظِيمًا

فَنَوَيْتُ ٱلتَّحَيُّزَ إِلَى ٱلْمَيْسَرَةِ وَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيَّ وَوَصَلْتُهَا وَقَدِ ٱنْكَسَرَتْ كَسْرَةً عَظِيمَةً وَفَرَّتْ أَشَدَّ فِرَارًا مِنَ ٱلْكُلِّ. فَنَوَيْتُ ٱلتَّحَيُّزَ إِلَى طُلْبِ ٱلسُّلْطَانِ وَكَانَ رِدْءَ ٱلْأَطْلَابِ كُلِّهَا كَمَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ وَلَمْ يَبْقَ لِلسُّلْطَانِ فِيهِ إِلَّا سَبْعَةَ عَشَرَ مُقَاتِلًا لَا غَيْرُ وَأَخَذَ ٱلْبَاقِينَ إِلَى ٱلْقِتَالِ. لَكِنَّ ٱلْأَعْلَامَ كُلَّهَا بَاقِيَةٌ ثَابِتَةٌ وَٱلْكُوسُ يُدَقُّ لَا يَفْتُرُ. وَأَمَّا ٱلسُّلْطَانُ فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ هٰذِهِ ٱلنَّازِلَةِ. سَارَ حَتَّى أَتَى طُلْبَهُ فَوَجَدَ فِيهِ هٰذَا ٱلنَّفَرَ ٱلْقَلِيلَ. فَوَقَفَ فِيهِ وَٱلنَّاسُ يَفِرُّونَ مِنَ ٱلْجَوَانِبِ وَهُوَ يَأْمُرُ أَصْحَابَ ٱلْكُوسِ بِٱلدَّقِّ بِحَيْثُ لَا يَفْتُرُونَ وَكُلَّمَا رَأَى فَارًّا يَأْمُرُ مَنْ يُحْضِرُهُ عِنْدَهُ وَفِي ٱلْجُمْلَةِ مَا أَقْصَرَ ٱلنَّاسُ فِي فِرَارِهِمْ. فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ حَمَلَ حَمْلَةً فَفَرُّوا. ثُمَّ وَقَفَ خَوْفًا مِنَ ٱلْكَمِينِ فَوَقَفُوا وَقَاتَلُوا. ثُمَّ حَمَلَ حَمْلَةً ثَانِيَةً. فَفَرُّوا وَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي فِرَارِهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَوَقَفُوا. ثُمَّ حَمَلَ حَمْلَةً ثَالِثَةً حَتَّى بَلَغَ إِلَى رُؤُوسِ رَوَابِي هُنَاكَ وَأَعَالِي تُلُولٍ. فَفَرُّوا إِلَى أَنْ وَقَفَ ٱلْعَدُوُّ وَوَقَفُوا. وَكَانَ كُلُّ مَنْ رَأَى طُلْبَ ٱلسُّلْطَانِ وَاقِفًا وَٱلْكُوسُ يُدَقُّ يَسْتَحِي أَنْ يُجَاوِزَهُ وَيَخَافُ غَائِلَةَ ذٰلِكَ فَيَعُودُ إِلَى ٱلطُّلْبِ. فَٱجْتَمَعَ فِي ٱلْقَلْبِ خَلْقٌ عَظِيمٌ وَوَقَفَ ٱلْعَدُوُّ قُبَالَتَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ ٱلتُّلُولِ وَٱلرَّوَابِي وَٱلسُّلْطَانُ وَاقِفٌ فِي طُلْبِهِ وَٱلنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِأَسْرِهَا وَخَافَ ٱلْعَدُوُّ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلشَّعْرَاءِ ٱلْكَمِينُ. فَتَرَاجَعُوا يَطْلُبُونَ ٱلْمَنْزِلَةَ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى تَلٍّ فِي أَوَائِلِ ٱلشَّعْرَاءِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ فِي

خَيْمَتِهِ. وَلَقَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِهِ أُسَلِّيهِ وَهُوَ لَا يَقْبَلُ ٱلسُّلُوَّ وَظُلِّلَ عَلَيْهِ بِمِنْدِيلٍ وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا فَأُحْضِرَ لَهُ شَيْءٌ لَطِيفٌ فَتَنَاوَلَ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا وَبَعَثَ ٱلنَّاسُ خَيْلَهُمْ لِلسَّقْيِ فَإِنَّ ٱلْمَكَانَ كَانَ بَعِيدًا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعَوْدِ مِنَ ٱلسَّقْيِ وَٱلْجَرْحَى يُحْضَرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بِمُدَاوَاتِهِمْ وَحَمْلِهِمْ وَقُتِلَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ رَجَّالَةٌ كَثِيرَةٌ وَجُرِحَ مِنَ ٱلطَّائِفَتَيْنِ. وَكَانَ مِمَّنْ ثَبَتَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ وَٱلطَّوَاشِي قَايْمَازُ ٱلنَّجْمِيُّ وَٱلْمَلِكُ ٱلْأَفْضَلُ وَلَدُهُ وَصُدِمَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَٱنْفَتَحَ دُمَّلٌ كَانَ فِي وَجْهِهِ وَسَالَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ. وَثَبَتَ أَيْضًا طَابُ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَمُقَدَّمُهُ عَلَاءُ ٱلدِّينِ وَشَكَرَهُ ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ذٰلِكَ وَتَفَقَّدَ ٱلنَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدُوا قَدِ ٱسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ عُرِفَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ كَبِيرٌ مُوسَكُ. وَكَانَ شُجَاعًا مَعْرُوفًا وَقَايْمَازُ ٱلْعَادِلِيُّ وَكَانَ مَذْكُورًا وَلَيْغُوشُ وَكَانَ شُجَاعًا. وَجُرِحَ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَخُيُولٌ كَثِيرَةٌ. وَقُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأُسِرَ وَاحِدٌ فَأُحْضِرَ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَأُخِذَتْ مِنْهُمْ خُيُولٌ أَرْبَعَةٌ. وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ إِلَى ٱلثَّقَلِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى ٱلْعَوْجَاءِ فَٱسْتَأْذَنْتُهُ وَتَقَدَّمْتُهُ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ وَجَلَسَ هُوَ يَنْتَظِرُ ٱجْتِمَاعَ ٱلْعَسَاكِرِ وَمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ. وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ نَزَلَ عَلَى أَرْسُوفَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلتَّاسِعُ: وَسِرْتُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ حَتَّى أَتَيْتُ ٱلثَّقَلَ وَقَدْ

نَزَلَ قَاطِعَ ٱلنَّهرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلعَوْجَاءِ فِي مَنْزِلَةٍ خَضْرَاءَ طَيِّبَـةٍ عَلَى جَانِبِ ٱلنَّهرِ ووَصَلَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلْمَـنْزِلَةِ أَوَاخِرَ ٱلنَّهَارِ . وَٱزْدَحَمَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْقَنطَرَةِ . فَنَزَلَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى ٱلنَّهرِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ٱلْخَيمَةِ وَأَمَرَ ٱلْجَاوِيشَ أَنْ يُنَادِيَ فِي ٱلعَسكَرِ بِٱلعُبُورِ إِلَيْهِ . وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْوَقْعَةِ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلنَّاسُ بَيْنَ جَرِيحِ ٱلْجَسَدِ وَجَرِيحِ ٱلْقَلْبِ . وَأَقَامَ ٱلسُّلْطَـانُ إِلَى سُحْرَةِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ وَدُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى جِهَةِ ٱلعَدُوِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَرِيبِ أَرْسُوفَ وَصَفَّ ٱلْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ رَجَاءَ خُرُوجِ ٱلْعَدُوِّ وَمَسِيرِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ . فَلَمْ يَرْحَلِ ٱلعَدُوُّ فِي ذَلِكَ ٱلْيَومِ لِمَا نَالَهُمْ مِنَ ٱلتَّعَبِ وَأَقَامَ قُبَالَتَهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلَتِهِ ٱلَّتِي بَاتَ بِهَا . وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ ٱلسَّادِسَ عَشَرَ دُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ نَحْوَهُمْ ووَصَلَ خَبَرُ ٱلعَدُوِّ أَنَّهُ قَدْ رَحَلَ طَالِبًا جِهَـةَ يَافَا فَقَارَبَهُمْ مُقَارَبَةً عَظِيمَةً وَرَتَّبَ ٱلْأَطْـلَابَ تَرْتِيبَ ٱلْقِتَالِ وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ وَأَحْدَقَ ٱلعَسكَرُ ٱلْإِسْـلَامِيُّ بِٱلْقَوْمِ وَأَلْقَوا عَلَيْهِم مِنَ ٱلنُّشَّابِ مَا كَادَ يَسُدُّ ٱلْأُفُقَ وَقَاتَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قِتَالَ ٱلْحَنِقِ وَقَصَدَ رَحِمَـهُ ٱللهُ تَحْرِيكَ عَزَائِمِهِمْ عَلَى ٱلْحَمْلَةِ حَتَّى إِذَا حَمَـلُوا أَلْقَى ٱلنَّاسَ عَلَيْهِمْ وَيُعْطِي ٱللهُ ٱلنَّصرَ لِمَنْ يَشَاءُ . فَلَمْ يَحْمِلُوا وَحَفِظُوا نُفُوسَهُمْ وَسَارُوا مُصْطَفِّينَ عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا نَهرَ ٱلْعَوْجَاءِ وَهُوَ ٱلنَّهرُ ٱلَّذِي مَنْزِلَتُنَا أَعْلَاهُ . فَنَزَلَ فِي أَسْفَلِهِ وَعَبَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى غَرْبِيِّ ٱلنَّهرِ وَأَقَامَ ٱلْبَاقُونَ

مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ . فَلَمَّا عَلِمَ ٱلنَّاسُ بِنُزُولِهِمْ تَرَاجَعَ ٱلنَّاسُ عَنْهُمْ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلثَّقَلِ وَنَزَلَ فِي خَيْمَتِهِ وَأَطْعِمَ ٱلطَّعَامَ وَأُتِيَ بِأَرْبَعَةٍ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ أَخَذَتْهُمُ ٱلْعَرَبُ وَمَعَهُمُ ٱمْرَأَةٌ فَرُفِعُوا إِلَى ٱلزَّرْدَخَانَةِ وَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ يَكْتُبُ ٱلْكُتُبَ إِلَى ٱلْأَطْرَافِ بِٱسْتِحْضَارِ بَقِيَّةِ ٱلْعَسَاكِرِ وَحَضَرَ مَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ يَوْمَ أَرْسُوفَ خَيْلٌ كَثِيرَةٌ وَأَنَّهُ تَتَبَّعَهَا ٱلْعَرَبُ وَعَدُّوهَا وَزَادَتْ عَلَى مِئَةٍ وَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ أَنْ تَرْحَلَ ٱلْجِمَالُ وَتَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلرَّمْلَةِ وَبَاتَ هُوَ بِتِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ

أَلْمَنْزِلُ ٱلْعَاشِرُ : وَلَمَّا كَانَ سَابِعَ عَشَرَ صَلَّى ٱلصُّبْحَ وَرَحَلَ وَرَحَلَ مَعَهُ ٱلثَّقَلُ ٱلصَّغِيرُ وَسَارَ يُرِيدُ ٱلرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا . وَوَصَلَ مِنَ ٱلْيَزَكِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ رَحَلَ مِنْ يَافَا . وَسَارَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى أَنْ أَتَى ٱلرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ أَيْضاً . فَسَأَلَهُمَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ . فَذَكَرَا أَنَّهُمْ رُبَّمَا أَقَامُوا بِيَافَا أَيَّامًا وَفِي أَنْفُسِهِمْ عِمَارَتُهَا وَإِشْحَانُهَا بِٱلرِّجَالِ وَٱلْعُدَدِ . وَأَحْضَرَ ٱلسُّلْطَانُ أَرْبَابَ مَشُورَتِهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَهَلْ إِنَّهَا تُخْرَبُ أَوْ تَبْقَى . وَٱتَّفَقَ ٱلرَّأْيُ عَلَى أَنْ يَتَخَلَّفَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ مُقَارِبَ ٱلْعَدُوِّ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَهُمْ وَٱتِّصَالَهَا وَأَنْ يَسِيرَ هُوَ وَيُخْرِبَ عَسْقَلَانَ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا ٱلْإِفْرَنْجُ وَهِيَ عَامِرَةٌ فَيَقْتُلُوا مَنْ بِهَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَيَأْخُذُوا بِهَا ٱلْقُدْسَ ٱلشَّرِيفَ

وَيَقطَعُونَ بِهَا طَرِيقَ مِصرَ . وَخَشِيَ ٱلسُّلطَانُ مِنَ ذٰلِكَ وَعَلِمَ عَجزَ ٱلْمُسلِمِينَ عَنْ حِفظِهَا لِقُربِ عَهدِهِمْ مِنْ عَكَّا وَمَا جَرَى عَلَى مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِهَا . فَتَعَيَّنَ لِذٰلِكَ خَرَابُ عَسقَلَانَ . فَسَارَ ٱلثَّقَلُ مِنْ أَوَّلِ ٱللَّيلِ . وَتَقَدَّمَ إِلَى وَلَدِهِ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَفضَلِ أَنْ سَارَ عَقِيبَ ٱلثَّقَلِ نِصفَ ٱللَّيلِ وَسَارَ هُوَ وَأَنَا فِي خِدمَتِهِ سُحرَةَ ٱلْأَربِعَاءِ

أَلْمَنزِلُ ٱلْحَادِي عَشَرَ وَهُوَ عَلَى عَسقَلَانَ : وَلَمَّا كَانَ يَومُ ٱلْأَربِعَاءِ ثَامِنَ عَشَرَ ٱلشَّهرِ وَصَلَ ٱلسُّلطَانُ إِلَى يَبنَا فَنَزَلَ بِهَا وَضَحَّى وَأَخَذَ ٱلنَّاسُ رَاحَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَسَارَ حَتَّى أَتَى أَرضَ عَسقَلَانَ وَقَدْ ضُرِبَتْ خَيمَتُهُ بَعِيدًا مِنهَا . فَبَاتَ هُنَاكَ مَهمُومًا بِسَبَبِ ٱلْخَرَابِ وَمَا نَامَ إِلَّا قَلِيلًا . وَلَقَدْ دَعَانِي فِي خِدمَتِهِ سَحَرًا وَكُنتُ فَارَقتُ خِدمَتَهُ بَعدَ مُضِيِّ نِصفِ ٱللَّيلِ . فَحَضَرتُ وَبَدَأَ بِٱلْحَدِيثِ فِي مَعنَى خَرَابِهَا وَأَحضَرَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفضَلَ وَشَاوَرَهُ فِي ذٰلِكَ وَطَالَ ٱلْحَدِيثُ فِي ٱلْمَعنَى وَلَقَدْ قَالَ لِي : وَٱللهِ لَأَنْ أَفقِدَ أَولَادِي بِأَسرِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهدِمَ مِنهَا حَجَرًا وَاحِدًا وَلٰكِنْ إِذَ قَضَى ٱللهُ ذٰلِكَ وَفِيهِ دَعوَتُهُ لِحِفظِ مَصلَحَةِ ٱلْمُسلِمِينَ . ثُمَّ ٱستَخَارَ ٱللهَ تَعَالَى فَأَوقَعَ ٱللهُ فِي نَفسِهِ أَنَّ ٱلْمَصلَحَةَ فِي خَرَابِهَا لِعَجزِ ٱلْمُسلِمِينَ عَنْ حِفظِهَا . فَٱستَحضَرَ ٱلْوَالِيَ قَيصَرَ بِهَا وَهُوَ مِنْ كِبَارِ مَمَالِيكِهِ وَذَوِي ٱلْآرَاءِ مِنهُمْ فَأَمَرَهُ بِجَمعِ ٱلْفَعَلَةِ فِيهَا . وَلَقَدْ رَأَيتُهُ وَقَدِ ٱجتَازَ بِٱلسُّوقِ وَٱلْوِطَاقِ بِنَفسِهِ مُستَفِزًّا ٱلنَّاسَ لِلْخَرَابِ . وَقَسَمَ ٱلسُّورَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَجَعَلَ لِكُلِّ أَمِيرٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ

ٱلْعَسْكَرِ بُرْجًا مَمْلُوءًا يُخَرِّبُونَهُ . وَدَخَلَ ٱلنَّاسُ ٱلْبَلَدَ وَوَقَعَ فِيهِ ٱلضَّجِيجُ وَٱلْبُكَاءُ وَكَانَ بَلَدًا خَفِيفًا عَلَى ٱلْقَلْبِ مُحْكَمَ ٱلْأَسْوَارِ عَظِيمَ ٱلْبِنَاءِ مَرْغُوبًا فِي سُكْنَتِهِ فَلَحِقَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهِ حُزْنٌ عَظِيمٌ وَعَظُمَ عَوِيلُ أَهْلِهِ عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ وَبَيْعِ مَا يَسْوَى عَشَرَةَ دَرَاهِمَ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ وَٱخْتَبَطَ ٱلْبَلَدُ وَخَرَجَ أَهْلُهُ إِلَى ٱلْعَسْكَرِ بِذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ يَهْجُمَ ٱلْإِفْرِنْجُ وَبَذَلُوا فِي ٱلْكِرَاءِ أَضْعَافَ مَا يَسْوَى . قَوْمٌ إِلَى مِصْرَ وَقَوْمٌ إِلَى ٱلشَّامِ وَقَوْمٌ يَمْشُونَ . وَجَرَتْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ وَفِتْنَةٌ هَائِلَةٌ لَعَلَّهَا لَمْ تَخْتَصَّ بِٱلَّذِينَ ظَلَمُوا . وَكَانَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْأَفْضَلُ يَسْتَعْمِلَانِ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْخَرَابِ وَٱلْحَثِّ عَلَيْهِ خَشْيَةَ أَنْ يَسْمَعَ ٱلْعَدُوُّ فَيَحْضُرَ وَلَا يُمْكِنَ مِنْ خَرَابِهَا . وَبَاتَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْخِيَمِ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ مِنَ ٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ . وَفِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ وَصَلَ مِنْ جَانِبِ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْإِفْرِنْجَ تَحَدَّثُوا مَعَهُ فِي ٱلصُّلْحِ وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْهُنْفَرِي وَتَحَدَّثَ مَعَهُ وَأَنَّهُ طَالَبَ جَمِيعَ ٱلْبِلَادِ ٱلسَّاحِلِيَّةِ . فَرَأَى ٱلسُّلْطَانُ أَنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِمَا رَأَى فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلضَّجَرِ وَٱلسَّآمَةِ مِنَ ٱلْقِتَالِ وَٱلْمُصَابَرَةِ وَكَثْرَةِ مَا عَلَاهُمْ مِنَ ٱلدُّيُونِ . وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْمَحُ فِي ٱلْحَدِيثِ فِي ذٰلِكَ . وَفَوَّضَ أَمْرَ ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِهِ وَأَصْبَحَ ٱلْعِشْرِينَ عَلَى ٱلْإِصْرَارِ عَلَى ٱلْخَرَابِ وَٱسْتِعْمَالِ ٱلنَّاسِ فِيهِ وَحَثِّهِمْ عَلَيْهِ وَأَبَاحَهُمُ ٱلْمِيرَ ٱلَّذِي كَانَ ذَخِيرَةً فِي ٱلْبَلَدِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهِ وَضَعْفِ ٱلْوَقْتِ وَٱلْخَوْفِ

مِنْ هُجُومِ ٱلإِفْرَنْجِ. وَأَمَرَ بِحَرِيقِ ٱلْبَلَدِ فَأُضْرِمَتِ ٱلنَّارُ فِي بُيُوتِهِ وَأَدْوُرِهِ وَرَفَضَ أَهْلُهُ بَوَاقِيَ أَقْمِشَتِهِ لِعَجْزٍ عَنْ نَقْلِهَا وَٱلأَخْبَارُ تَتَوَاتَرُ مِنْ جَانِبِ ٱلْعَدُوِّ بِعِمَارَةِ يَافَا. وَكَتَبَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ يُخْبِرُ أَنَّ ٱلْقَوْمَ لَمْ يَعْلَمُوا بِخَرَابِ ٱلْبَلَدِ فَأَجَابَهُ أَنْ سَوِّفِ ٱلْقَوْمَ وَطَوِّلِ ٱلْحَدِيثَ لَعَلَّنَا نَتَمَكَّنُ مِنَ ٱلْخَرَابِ وَأَمَرَ بِحَشْوِ أَبْرَاجِ ٱلْبَلَدِ بِٱلأَحْطَابِ وَأَنْ تُحْرَقَ وَأَصْبَحَ ٱلْحَادِي وَٱلْعِشْرِينَ رَكِبَ يَحُثُّ ٱلنَّاسَ. وَدَامَ يَسْتَعْمِلُهُمْ عَلَى ٱلتَّخْرِيبِ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حَتَّى ٱلْتَاثَ مِزَاجُهُ ٱلْتِيَاثًا قَرِيبًا ٱمْتَنَعَ بِسَبَبِهِ مِنَ ٱلرُّكُوبِ وَٱلْغِذَاءِ يَوْمَيْنِ. وَأَخْبَارُ ٱلْعَدُوِّ تَتَوَاصَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْيَزَكِ وَٱلْعَسْكَرِ وَقَعَاتٌ وَقَلَبَاتٌ وَهُوَ يُوَاظِبُ عَلَى ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْخَرَابِ وَنَقْلِ ٱلثِّقَلِ إِلَى قَرِيبِ ٱلْبَلَدِ لِيُعَاوِنَ ٱلْغِلْمَانُ وَٱلْحَمَّالُونَ وَغَيْرُهُمْ فِي ذٰلِكَ. فَخَرِبَ مِنَ ٱلسُّورِ مُعْظَمُهُ وَكَانَ عَظِيمَ ٱلْبِنَاءِ بِحَيْثُ إِنَّهُ كَانَ عَرْضُهُ فِي مَوَاضِعَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ وَفِي مَوَاضِعَ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ. ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْحَجَّارِينَ لِلسُّلْطَانِ وَأَنَا حَاضِرٌ أَنَّ عَرْضَ ٱلسُّورِ ٱلَّذِي يَنْقُبُونَهُ فِيهِ مِقْدَارُ رُمْحٍ. وَلَمْ يَزَلِ ٱلْخَرَابُ وَٱلْحَرِيقُ يَعْمَلُ فِي ٱلْبَلَدِ وَأَسْوَارِهِ إِلَى سَلْخِ شَعْبَانَ. وَعِنْدَ ذٰلِكَ وَصَلَ مِنْ جَرْدِيكَ كِتَابٌ يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ ٱلْقَوْمَ يَنْفَسِخُونَ وَصَارُوا يَخْرُجُونَ مِنْ يَافَا يُغَاوِرُونَ عَلَى ٱلْبِلَادِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنْهَا. وَتَحَرَّكَ ٱلسُّلْطَانُ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مِنْهُمْ غَرَضًا فِي غِرَّتِهِمْ. فَعَزَمَ عَلَى ٱلرَّحِيلِ وَعَلَى أَنْ يُخَلِّفَ فِي عَسْقَلَانَ حَجَّارِينَ

وَمَعَهُمْ خَيلٌ يَحْمِيهِمْ وَيَسْتَقْضُونَهُمْ فِي ٱلْخَرَابِ . فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ بِحَيْثُ أَنْ يُحْرَقَ ٱلْـبُرْجُ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْأَسْبِتَارِ . وَكَانَ بُرْجًا عَظِيمًا مُشْرِفًا عَلَى ٱلْبَحْرِ كَٱلْقَلْعَةِ ٱلْمَنِيعَةِ . وَلَقَدْ دَخَلْتُهُ وَطُفْتُهُ فَرَأَيْتُ بِنَاءَهُ أَحْكَمَ بِنَاءٍ بِعَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ ٱلْمَعَاوِلُ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُحْرِقُوهُ حَتَّى يَبْقَى بِٱلْحَرِيقِ قَابِلًا لِلْخَرَابِ . وَأَصْبَحَ مُسْتَهَلَّ رَمَضَانَ أَمَرَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفْضَلَ أَنْ يُبَاشِرَ ذَٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَخَوَاصِّهِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَحْمِلُ ٱلْخَشَبَ هُوَ وَخَوَاصُّهُ لِحَرِيقِ ٱلْبُرْجِ . وَلَمْ يَزَلِ ٱلنَّاسُ يَنْقُلُونَ ٱلْخَشَبَ وَيَحْشُونَهُ فِي ٱلْبُرْجِ حَتَّى ٱمْتَلَأَ ثُمَّ أُطْلِقَتْ فِيهِ ٱلنَّارُ فَٱشْتَعَلَ ٱلْخَشَبُ وَبَقِيَ ٱلنَّارُ تَشْعَلُ فِيهِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا . ثُمَّ رَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ ثَانِيَ رَمَضَانَ نِصْفَ ٱللَّيْلِ خَشْيَةً عَلَى مِزَاجِهِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَوَصَلَ يَبْنَا ضَاحِيَ ٱلنَّهَارِ وَبَاتَ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ وَأَصْبَحَ ثَالِثَ ٱلشَّهْرِ رَاحِلًا إِلَى جِهَةِ ٱلرَّمْلَةِ .....

نُخْبَةٌ
مِنْ كِتَابِ ٱلتَّأْرِيخِ لِأَبِي ٱلْفِدَاءِ
ٱلْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ حَمَاةَ

ذِكْرُ وَفَاةِ نُورِ ٱلدِّينِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ ٱلصِّفَاتِ

فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تُوُفِّيَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ نُورُ ٱلدِّينِ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ عِمَادِ ٱلدِّينِ زَنْكِي بْنِ أَقْسَنْقَرَ صَاحِبُ ٱلشَّامِ وَدِيَارِ ٱلْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ يَوْمَ ٱلْأَرْبِعَاءِ حَادِيَ عَشَرَ شَوَّالٍ بِعِلَّةِ ٱلْخَوَانِيقِ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ ٱلْمَحْرُوسَةِ . وَكَانَ نُورُ ٱلدِّينِ قَدْ شَرَعَ يَتَجَهَّزُ لِلدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَلَاحِ ٱلدِّينِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّيَ ٱبْنَ أَخِيهِ سَيْفَ ٱلدِّينِ غَازِيَ بْنَ مَوْدُودٍ فِي ٱلشَّامِ قُبَالَةَ ٱلْفِرَنْجِ وَيَسِيرَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى مِصْرَ . فَأَتَاهُ أَمْرُ ٱللهِ ٱلَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ . وَكَانَ نُورُ ٱلدِّينِ أَسْمَرَ طَوِيلَ ٱلْقَامَةِ لَيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنَكِهِ حَسَنَ ٱلصُّورَةِ . وَكَانَ قَدِ ٱتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِٱلْحَرَمَيْنِ وَٱلْيَمَنِ لَمَّا مَلَكَهَا تُورَانْشَاهُ بْنُ أَيُّوبَ وَكَذٰلِكَ كَانَ يُخْطَبُ لَهُ بِمِصْرَ . وَكَانَ مَوْلِدُ نُورِ ٱلدِّينِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ ٱلْأَرْضَ لِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَكَانَ مِنَ ٱلزُّهْدِ وَٱلْعِبَادَةِ عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ . وَكَانَ يُصَلِّي كَثِيرًا مِنَ ٱللَّيْلِ وَكَانَ كَمَا قِيلَ

جَمَعَ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْخُشُوعَ لِرَبِّهِ   مَا أَحْسَنَ ٱلْمِحْرَابَ فِي ٱلْمِحْرَابِ

وَكَانَ عَارِفًا بِٱلْفِقْهِ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ ٱللهُ

عَنْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَعَصُّبٌ وَهُوَ ٱلَّذِي بَنَى أَسْوَارَ مُدُنِ ٱلشَّامِ مِنْهَا دِمَشْقُ وَحِمْصُ وَحَمَاةُ وَحَلَبُ وَشَيْزَرُ وَبَعْلَبَكُّ وَغَيْرُهَا لَمَّا تَهَدَّمَتْ بِٱلزَّلَازِلِ وَبَنَى ٱلْمَدَارِسَ ٱلْكَثِيرَةَ ٱلْحَنَفِيَّةَ وَٱلشَّافِعِيَّةَ وَلَا يَحْتَمِلُ هٰذَا ٱلْمُخْتَصَرُ ذِكْرَ فَضَائِلِهِ

وَلَمَّا تُوُفِّيَ نُورُ ٱلدِّينِ قَامَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِسْمٰعِيلُ بْنُ نُورِ ٱلدِّينِ مَحْمُودٍ بِٱلْمُلْكِ بَعْدَهُ وَعُمْرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَحَلَفَ لَهُ ٱلْعَسْكَرُ بِدِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا وَأَطَاعَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بِمِصْرَ وَخُطِبَ لَهُ بِهَا وَضُرِبَتِ ٱلسِّكَّةُ بِٱسْمِهِ . وَكَانَ ٱلْمُتَوَلِّي لِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ وَتَدْبِيرِ دَوْلَتِهِ ٱلْأَمِيرَ شَمْسَ ٱلدِّينِ مُحَمَّدًا ٱلْمَعْرُوفَ بِٱبْنِ ٱلْمُقَدَّمِ . وَلَمَّا مَاتَ نُورُ ٱلدِّينِ وَمَلَكَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ سَارَ مِنَ ٱلْمَوْصِلِ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي بْنُ قُطْبِ ٱلدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ ٱلدِّينِ زَنْكِي وَمَلَكَ جَمِيعَ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزَرِيَّةِ (ٱلجزرية)

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وَفِي أَوَّلِ هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ ٱجْتَمَعَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ ٱلْكَنْزُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَأَظْهَرَ ٱلْخِلَافَ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَأَرْسَلَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَيْهِ عَسْكَرًا فَٱقْتَتَلُوا وَقُتِلَ ٱلْكَنْزُ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ وَٱنْهَزَمَ ٱلْبَاقُونَ

ذِكْرُ مُلْكِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ دِمَشْقَ وَغَيْرَهَا

فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ سَلْخَ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مَلَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ وَحَمَاةَ . وَسَبَبُهُ أَنَّ شَمْسَ ٱلدِّينِ ٱبْنَ ٱلدَّايَةِ

ٱلْمُقِيمَ بِحَلَبَ أَرْسَلَ سَعْدَ ٱلدِّينِ كَمُشْتَكِينَ يَسْتَدْعِي ٱلْمَلِكَ ٱلصَّالِحَ ٱبْنَ نُورِ ٱلدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ لِيَكُونَ مُقَامُهُ بِهَا. فَسَارَ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِلَى حَلَبَ مَعَ سَعْدِ ٱلدِّينِ كَمُشْتَكِينَ. وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِحَلَبَ وَتَمَكَّنَ كَمُشْتَكِينُ قَبَضَ عَلَى شَمْسِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلدَّايَةِ وَإِخْوَتِهِ وَقَبَضَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ وَإِخْوَتِهِ وَهُوَ رَئِيسُ حَلَبَ وَٱسْتَبَدَّ سَعْدُ ٱلدِّينِ بِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ فَخَافَهُ ٱبْنُ ٱلْمُقَدَّمِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلَّذِينَ بِدِمَشْقَ فَكَاتَبُوا صَلَاحَ ٱلدِّينِ وَٱسْتَدْعَوْهُ لِيُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ. فَسَارَ جَرِيدَةً فِي سَبْعِ مِائَةِ فَارِسٍ وَلَمْ يَلْبَثْ وَوَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ ٱلْعَسْكَرِ وَٱلْتَقَوْهُ وَخَدَمُوهُ وَنَزَلَ بِدَارِ وَالِدِهِ أَيُّوبَ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ ٱلْعَقِيقِيِّ وَعَصَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَلْعَةُ. وَكَانَ فِيهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ خَادِمٌ ٱسْمُهُ رَيْحَانُ. فَرَاسَلَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَمَالَهُ فَسَلَّمَ ٱلْقَلْعَةَ إِلَيْهِ. فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ صَلَاحُ ٱلدِّينِ وَأَخَذَ مَا فِيهَا مِنَ ٱلْأَمْوَالِ. وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمُهُ وَقَرَّرَ أَمْرَ دِمَشْقَ ٱسْتَخْلَفَ بِهَا أَخَاهُ سَيْفَ ٱلْإِسْلَامِ طُغْتِكِينَ بْنَ أَيُّوبَ وَسَارَ إِلَى حِمْصَ مُسْتَهَلَّ جُمَادَى ٱلْأُولَى

وَكَانَتْ حِمْصُ وَحَمَاةُ وَقَلْعَةُ بَارِينَ وَسَلَمِيَةُ وَتَلُّ خَالِدٍ وَٱلرُّهَا مِنْ بَلَدِ ٱلْجَزِيرَةِ فِي أَقْطَاعِ فَخْرِ ٱلدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ ٱلزَّعْفَرَانِيِّ. فَلَمَّا مَاتَ نُورُ ٱلدِّينِ لَمْ يُمْكِنْ فَخْرَ ٱلدِّينِ مَسْعُودًا ٱلْمُقَامُ بِحِمْصَ وَحَمَاةَ لِسُوءِ سِيرَتِهِ مَعَ ٱلنَّاسِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادُ لَهُ بِغَيْرِ قِلَاعِهَا. فَإِنَّ قِلَاعَهَا

فِيهَا وُلَاةٌ لِنُورِ ٱلدِّينِ وَلَيسَ لِفَخْرِ ٱلدِّينِ مَعهُمْ فِي ٱلْقِلَاعِ حُكْمٌ إِلَّا بَارِينَ فَإِنَّ قَلْعتهَا كَانَتْ لَهُ أَيضًا . وَنَزَلَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ عَلَى حِمص فِي حَادِي عشَرَ جُمَادَى ٱلْأُولَى وَمَلَكَ ٱلْمَدِينَةَ وَعَصَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَلْعَةُ . فَنَزَّلَ عَلَيْهَا مَنْ يُضَيِّقُ عَلَيهَا وَرَحل إِلَى حَمَاةَ فَمَلَكَ مَدِينَتَهَا مُسْتَهَلَّ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّنَـةِ . وَكَانَ بِقَلْعتِهَا ٱلْأَمِيرُ عِزُّ ٱلدِّينِ جُرْدِيكُ أَحَدُ ٱلْمَمَالِيكِ ٱلنُّورِيَّةِ . فَٱمْتَنَعَ فِي ٱلْقَلْعَةِ فَذَكَرَ لَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ أَنَّهُ لَيس لَهُ غَرَضٌ إِلَّا حِفْظُ بِلَادِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ نَائِبُهُ وَقَصْدُهُ مِنْ جُرْدِيكَ ٱلْمَسِيرُ إِلَى حَلَبَ فِي رِسَالَةٍ فَٱسْتَحْلَفَهُ جُرْدِيكُ عَلَى ذٰلِكَ . وَسَارَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ بِرِسَالَةِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ وَٱسْتَخْلَفَ فِي قَلْعَةِ حَمَاةَ أَخَاهُ . فَلَمَّا وَصَلَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ قَبَضَ عَلَيْهِ كُمُشْتَكِينُ وَسَجَنَهُ . فَلَمَّا عَلِمَ أَخُوهُ بِذٰلِكَ سَلَّمَ ٱلْقَلْعَةَ إِلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَمَلَكَهَا

ثُمَّ سَارَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَى حَلَبَ وَحَصَرَهَا وَبِهَا ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ . فَجَمعَ أَهْلَ حَلَبَ وَقَاتَلُوا صَلَاحَ ٱلدِّينِ وَصَدُّوهُ عَنْ حَلَبَ وَأَرْسَلَ سَعْدُ ٱلدِّينِ كُمُشْتَكِينُ إِلَى سِنَانٍ مُقَدَّمِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لِيَقْتُلُوا صَلَاحَ ٱلدِّينِ . فَأَرْسَلَ سِنَانٌ جَمَاعَةً وَوَثَبُوا عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَقُتِلُوا دُونَهُ . وَٱسْتَمَرَّ صَلَاحُ ٱلدِّينِ مُحَاصِرًا لِحَلَبَ إِلَى مُسْتَهَـلِّ رَجَبٍ وَرَحَلَ عَنْهَـا بِسَبَبِ نُزُولِ ٱلْفِرَنْجِ عَلَى حِمصَ وَسَارُوا إِلَى حِمصَ . فَرَحَلَ ٱلْفِرَنْجُ عَنْهَا وَوَصَلَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَى حِمصَ وَحَصَرَ

قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة . ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد . أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين . فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود زنكي وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلغنداز وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار يسير في النجدة أيضا . فامتنع مضابعة لصلاح الدين . فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلغنداز إلى حلب وانضم إليهم عسكر حلب وسار إلى صلاح الدين . فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن تقر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح . فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة . فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشأم وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة .

وَفِي ٱلْعَشْرِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ شَوَّالٍ مَلَكَ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ قَلْعَةَ مَارِدِينَ وَأَخَذَهَا مِنْ صَاحِبِهَا فَخْرِ ٱلدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ ٱلزَّعْفَرَانِيِّ. وَكَانَ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلْمَذْكُورُ مِنْ أَكَابِرِ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلنُّورِيَّةِ

ذِكْرُ ٱنْهِزَامِ سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي صَاحِبِ ٱلْمَوْصِلِ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَفِيهَا عَاشِرَ شَوَّالٍ كَانَ ٱلْمُصَافَّةُ بَيْنَ ٱلسُّلْطَانِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ وَبَيْنَ سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زِنْكِي بِتَلِّ ٱلسُّلْطَانِ فَهَرَبَ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ مَعَهُ. فَإِنَّهُ كَانَ قَدِ ٱسْتَنْجَدَ بِصَاحِبِ حِصْنِ كِيفَا وَصَاحِبِ مَارِدِينَ وَغَيْرِهِمَا وَتَمَّتْ عَلَى سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي ٱلْهَزِيمَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ مَرْعُوبًا وَقَصَدَ ٱلْهُرُوبَ مِنْهَا إِلَى بَعْضِ ٱلْقِلَاعِ فَثَبَّتَهُ وَزِيرُهُ وَأَقَامَ بِٱلْمَوْصِلِ وَٱسْتَوْلَى ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ عَلَى أَثْقَالِ عَسْكَرِ ٱلْمَوْصِلِ وَغَيْرِهِمْ وَغَنِمَ مَا فِيهَا. ثُمَّ سَارَ إِلَى بُزَاعَةَ وَحَصَرَهَا وَتَسَلَّمَهَا. ثُمَّ سَارَ إِلَى مَنْبِجَ فَحَصَرَهَا فِي آخِرِ شَوَّالٍ. وَكَانَ صَاحِبُهَا قُطْبُ ٱلدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانَ ٱلْمَنْبِجِيُّ شَدِيدَ ٱلْبُغْضِ لِصَلَاحِ ٱلدِّينِ وَفَتَحَهَا عَنْوَةً وَأَسَرَ يَنَالَ وَأَخَذَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ. ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَسَارَ يَنَالُ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ فَأَقْطَعَهُ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي مَدِينَةَ ٱلرَّقَّةِ

ثُمَّ سَارَ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَى عَزَازَ وَنَازَلَهَا ثَالِثَ ذِي

ٱلْقَعْدَةِ وَتَسَلَّمَهَا حَادِي عَشَرَ ذِي ٱلْحِجَّةِ . فَوَثَبَ إِسْمَاعِيلِيٌّ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فِي حِصَارِهِ عَزَازَ فَضَرَبَهُ بِسِكِّينٍ فِي رَأْسِهِ فَجَرَحَهُ فَأَمْسَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّ وَبَقِيَ يَضْرِبُ بِٱلسِّكِّينِ فَلَا يُؤَثِّرُ حَتَّى قُتِلَ ٱلْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ . وَوَثَبَ آخَرُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ وَثَالِثٌ فَقُتِلَ أَيْضًا وَنَجَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَتِهِ مَذْعُورًا وَأَعْرَضَ جُنْدَهُ وَأَبْعَدَ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ . وَلَمَّا مَلَكَ ٱلسُّلْطَانُ عَزَازَ رَحَلَ عَنْهَا وَنَازَلَ حَلَبَ فِي مُنْتَصَفِ ذِي ٱلْحِجَّةِ وَحَصَرَهَا وَبِهَا ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ وَٱنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلسَّنَةُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِحَلَبَ . فَسَأَلُوهُ فِي ٱلصُّلْحِ فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ وَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ بِنْتًا صَغِيرَةً لِنُورِ ٱلدِّينِ فَأَكْرَمَهَا وَأَعْطَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا وَقَالَ لَهَا: مَا تَرُومِينَ : فَقَالَتْ أُرِيدُ قَلْعَةَ عَزَازَ وَكَانُوا قَدْ عَلَّمُوهَا ذٰلِكَ . فَسَلَّمَهَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ وَٱسْتَقَرَّ ٱلصُّلْحُ وَرَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ مِنْ حَلَبَ فِي ٱلْعِشْرِينَ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ

سيأتي القسم الثالث من نخب الملح
من كتاب العبر لابن خلدون
ومن كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس للمقري
ومن كتاب الافادة لابي اللطيف
ومن كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار لابن بطوطة
ومن كتاب عجائب المخلوقات لابن محمد القزويني

فهرسة

الجزء الثاني

	وجه
نخبة من مقدمة جنود بن سموان ويُعرف بعلي بن الشاه الفارسي	٣
بعثة برزويه الى بلاد الهند	٣٦
معركة الواقوصة	٣٧
مرور خالد من العراق الى الشام	٤٠
معركة اجنادين	٤٣
افتتاح دمشق	٤٥
افتتاح بلاد فارس . وقعة القرقس	٤٩
وقعة البويب	٥٣
ذكر خلافة هرون الرشيد	٥٨
شرح حال الوزارة في ايامهِ	٦٣
سيرة الفضل بن يحيى	٦٨
سيرة جعفر بن يحيى البرمكي	٧٣
شرح السبب في نكبة البرامكة وكيفية الحال في ذلك .	٧٩
شرح مقتل جعفر بن يحيى والقبض على اهلهِ	٨٠
وزارة ابي العباس الفضل بن الربيع	٨١
ذكر خلافة ابي احمد عبد الله المستعصم بالله	٨٢
ذكر خلافة الحاكم بامر الله	٨٩
عبارة تتعلق بفتوحات هفتكين وانكساراته	١٠٣
ذكر مسير الافرنج الصليبيين من عكا الى عسقلان	١١١
ذكر وقعة جرت	١٢١
ذكر مراسلة جرت	١٢٢
ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار	١٢٣
ذكر وقعة ارسوف وهي انكت في قلوب المسلمين	١٢٤
ذكر وفاة نور الدين وما كان لهُ من الصفات	١٣٣
ذكر مُلك صلاح الدين دمشق وغيرها	١٣٤
ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين	١٣٨